من الأعمال المجهولة

يوميات علي أحمد باكثير

في روسيا والجمهوريات الإسلامية وأوروبا



مكتبة مصر

إعداد وتوثيق

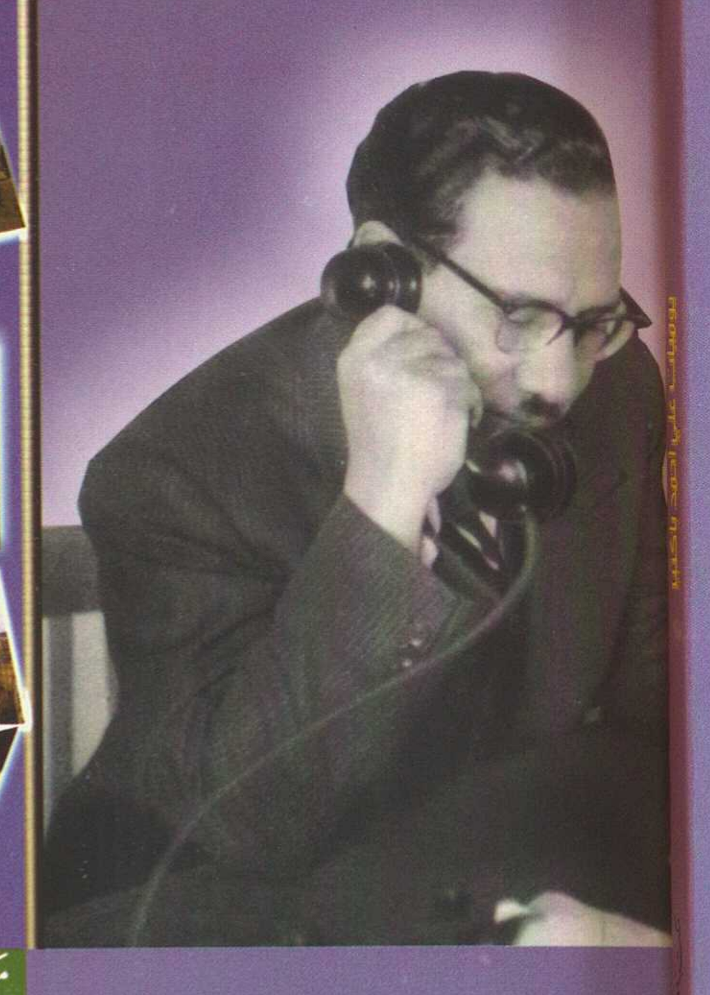
د. محمد أبوبكر حميد

Emad Ashour

عمال المجهولة

ميات علي أحمد باكثير

في روسيا والجمهوريات الإسلامية وأوروبا



إعداد وتوثيق

د.محمد أبوبكر حميد

مكتبة مصر

www.misrbookshop.net

يوميات علي أحمد باكثير

هذا الكتاب

عاش على أحمد باكثير حياته مُسافرا فى الزمان، مُترحلاً بين العصور والحضارات، كما سافر فى أعماق التاريخ والأساطير.

فى سنة ١٩٥٦م ترأس وفد الأدباء المصريين، وزار الاتحاد السوفيتى ورومانيا، وفى أكتوبر ١٩٥٨ زار الاتحاد السوفيتى والنمسا ورومانيا... وكان الجزء الرسمي من الرحلة إلى موسكو والجمهوريات الإسلامية التابعة للاتحاد السوفيتى. وشارك فى مؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا فى المقشند، ثم غادر المؤتمر مُنفردا إلى النمسا ورومانيا...

كتب هذه اليوميات لنفسه كشىء من تزجيته الوقت وليس للنشر فلم يكتبها بلغته الأدبية العربية الرقيقة السهلة.

بدأت الرحلة الثانية فى ١١ من أكتوبر ١٩٥٨ وزار جمهوريات : طاجستان بدعوة من الحكومة بعد أن شُفيى من وعكة بُرد.

تحدث باسم الأمة العربية- سبعين مليون يومزاك. وقضىَ فى " براغ" يومين فى طريقه إلى النمسا حيث قام برحلة حول " فينا " وأحبَ بهاءها فى الليل، وشاهد آثارا للمصرين وأمجادا.

كما زار إيطاليا، وزار بولونيا وأحس دوره كمسلم فاهم للدين دراسا للعقيدة حافظا للقرآن الكريم.

ثم بدأت رحلة العودة إلى مصر فى ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٨م.

مزكرات شخصية ينبغى أن يقرأها كل من يحب على أحمد باكثير ذى الملامح الجادة الصارمة لم تمنعه من إبداع أدب هزلى "كوميدي" ساخر راق.

مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقى- الفجالة
تليفون: ٢٥٩٠٨٩٢٠

يوميات على احمد باكثير – على باكثير
6 222010 912744
السعر ٨,٠٠ ج
ADAC0050

يوميات علي أحمد باكثير في روسيا والجمهوريات الإسلامية وأوربا

مشاهدات وأحاديث في السياسة والثقافة

إعداد وتوثيق:
د.محمد أبوبكر حميد

الناشر
مكتبة مصر
٣ ش كامل صدقى بالفجالة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾

(٣ الجاثية)

٨١

يوم الجمعة ٢١ نوفمبر ١٩٥٨

استيقظت مبكرا استعدادا لموعدي مع الأستاذ كارلو بلليني الذي سيحضر
بين الساعة والعاشرة ليقدمني لمقابلة مع صديقه ومدير الشركة التي يعمل فيها
والمساهم في شركة للنشر من جملة الشركات التي يساهم فيها والأكثر [illegible] فتركت
الخبز الذي عندي من البارحة ثم توجهت إلى المقهى لأشرب الكابتشينو كالعادة. ورجعت
إلى الفندق لأدخل [illegible] كالعادة أيضا ثم انتظرت في حجرتي إلى أن [illegible] الأستاذ
إذا حضر. ولكن حدث حادث بسيط كان يمكن أن يؤدي إلى نتيجة سيئة بالنسبة
لي لولا أن الله سلم. ذلك أنني حين حضرت إلى الفندق في بدء نزولي كان [illegible] الفندق
[illegible] مفتاحا رقمه ١٠٦ بدلا من مفتاح رقم ٢٠٦ ولم ألاحظ ذلك إلا حين أردت
أن أفتح الباب فلم يدخل المفتاح في ثقب الباب. فأردت أن أنزل [illegible] لأرد
هذا المفتاح وآخذ مفتاحي. ولكن الخادمة أدركتني بالمفتاح الذي عندها ففتحت
لي الباب وسلمتها المفتاح الغلط لترده إلى مكانه ولم يخطر ببالي أن هذا العمل
البسيط سيترتب عليه أي خطر. ذلك أنني انتظرت في حجرتي وأنا أكتب في المذكرات
وبين حين وآخر أنظر إلى الساعة حتى بلغت العاشرة والعشرين دقيقة ولما
يحضر الأستاذ كارلو فتعجبت من ذلك لأني أعلم [illegible] بالدقة [illegible]
[illegible] سماعة التلفون الذي في الحجرة فكلمتني [illegible] صاحبة الفندق. قلت لا
يعقل أن لم يحضر الأستاذ كارلو بعد للسؤال عني. فقالت يا أستاذ [illegible]
فعلا أنت [illegible] الآن. قلت بالطبع. قالت كيف يكون هذا ومفتاح حجرتك
عندي. لقد سأل عنك الأستاذ كارلو ثلاث مرات بالتلفون فقلت له إنه
ليس في الفندق! قلت يا ربي.. ألم تعلمي أني في الحجرة؟ قالت [illegible] أن أعلم؟
فأسرعت بالنزول إليها وقلت لها يا سيدتي إن [illegible] بالحجرة
لأنني أعطيت [illegible] مفتاحي. والسيدة [illegible] ذلك. [illegible]
لكن السيدة [illegible] وخشيت [illegible]
[illegible]. قلت [illegible] هل [illegible] ذلك؟ قالت نعم

إحدى صفحات اليوميات بخط علي أحمد باكثير



علي أحمد باكثير رحّالة الزمان والمكان

تحية الشاعر العظيم

ليهنك رودكي أن يكرمك الشعب | فإنك منه الروح والعقل والقلبُ
ألستَ حياةَ الشعبِ، منك استمدها | نعانق فيها المجدَ والعزَّ والخِصبُ ؟
ألستَ له عقلاً ينير سبيله | إلى حيث يسمو به مطلبه الصعبُ ؟
إلى حيث يسمو به إنشاءُ عالَمٍ | يسود السلامُ فيه والخيرُ والحبُّ !
ألستَ له القلبَ الذي جاش بالهوى | كأجمل ما غنّى به عاشقٌ صَبُّ
فأنجبتَ شعبَ التاجكستان جذوة | من الحبِّ يعلو نورُها الدهرَ لا يخبو
لشعرك يا رودكي، بشعرك وحده، | بلغتَ مقاماً لا تطاوله الشهبُ
أتتك وفود الشرقِ والغربِ تحتفي | بذكراك حتى وُحِّدَ الشرقُ والغربُ
يضمهما في عيد ذكراك منهلٌ | من الشعر فيّاضٌ هو الكوثرُ العذبُ

علي أحمد باكثير

ستالين آباد
٤ ١٥ أكتوبر ١٩٥٨

Ali Ahmed Bakather

مقدمـــــــــة

د.محمدأبوبكر حميد

سافر **علي أحمد باكثير** (١٩١٠ـ١٩٦٩م) أسفاراً عديدة في الزمان والمكان، وقد جعلت هذه الأسفار من حياته كلها غربةً واغتراباً. فقد ولد في مدينة **سورابايا بإندونيسا** بعيداً عن وطنه **حضرموت باليمن**، ولما عاد إلى وطنه الأصلي صبياً صغيراً عاش في غربة أخرى بعيداً عن أمه وأبيه، ثم تحولت هذه الغربة إلى اغتراب في الوطن حين شب عن الطوق وتفتح عقله على أفكار رياح الإصلاح التي هبت على العالم الإسلامي بقيادة المصلحيْن الإسلامييْن **جمال الدين الأفغاني**، و**محمد عبده** من خلال قراءاته واتصاله بتلميذيهما **محمد رشيد رضا**، و**محب الدين الخطيب**، فلما حاول فتح نافذة لنسمات من هذه الرياح في وطنه حاربه من أسماهم بالجامدين، ووضعوا في طريقه الأشواك لدرجة محاولة الحيلولة دون زواجه من الفتاة التي أحبها، فكان سفره الى أندونيسيا لبث شكواه لوالدته وإقناع والد الفتاة الذي يقيم هناك بالموافقة. وبالفعل ففي١٥من شعبان١٣٤٥هـ الموافق١٧من فبراير١٩٢٧م غادر مدينة سيئون (عاصمة السلطنة الكثيرية الحضرمية) التي تقع في قلب وادي حضرموت في رحلة شاقة على الجمال والحمير تستغرق أياما الى مدينة المُكَلاّ الساحلية (عاصمة الدولة القعيطية الحضرمية) وقد وصف هذه الرحلة في مسرحية (همام

أو في بلاد الأحقاف). وبعد أربعة عشر شهراً في موطن مولده عاد الى حضرموت في ٢٥ من شوال ١٣٤٦هـ الموافق ١٥ من أبريل ١٩٢٨م منتشياً بموافقة والد الفتاة على زواجه منها. ولكن لا تكاد أربع سنوات تمر على هذا الزواج السعيد حتى يفجع بموتها بعد مرض عضال، فيقرر الهجرة من وطنه نهائياً .

حمل الشاعر الحزين عصا التسيار وغادر حضرموت إلى عدن في ٢٥ من يونيو ١٩٣٢م ولسان حاله يقول:

إذا نبا بكريمِ موطن، فله

وراءه في بسيط الأرض ميدان

فأقام في **عَدَن** عاماً زار خلالها **الصومال** و**الحبشة**، فأنشد وخطب وكتب والتقى بشخصيات إصلاحية عديدة، ثم شدته أشواقه الروحية إلى الحرمين الشريفين فغادر **عدن** إلى **الحجاز** التي **وصلها** في ٢٥ من مارس ١٩٣٣م فأدى فريضة الحج، واستشفى روحياً في الربوع الطاهرة، وعقد عرى صداقات متينه مع أدباء **الحجاز** الرواد.

وما كاد يُمضّي عاماً في **المملكة العربية السعودية** حتى غادرها إلى **مصر في ١٣ من فبراير** ١٩٣٤م محققاً حلمه الذي تمناه بعد أن ضاقت به الحال في **حضرموت**، وعبر عنه في إحدى قصائده قائلاً:

سأرحل من بلاد ضِقت فيها ... تلازمني بها أبداً شَعوبُ

فأجتاز البحار لأرض (جاوا) ... إلى حيث المقام بها يطيبُ

وأعبر (مصر) حيث العلم حيث ... حضارة حيث يُحترم الأديبُ

وحيث الشعر خفاق لواه ... وحيث الضاد مرعاها خصيبُ

ولم يستطع الذهاب إلى **إندونيسيا (جاوا)** "حيث المقام بها يطيب" لوجود والدته بها، ولم تقدر له العودة لرؤيتها فظل بعيداً عنها منذ فارقها صبياً صغيراً حتى وفاتها ١٨من يناير سنة ١٩٥٣م.

وشعر **باكثير** بالاستقرار في **مصر**، وأدرك أنه حقق حلمه، فالتحق بجامعة فؤاد الأول ــ جامعة القاهرة حالياً ــ قسم اللغة الإنجليزية سنة ١٩٣٤م، والتقى بالأدباء الذين كان يحبهم، وأصبح من نجوم شعراء مجلة **«الرسالة»** الشهيرة وغيرها من الصحف مثل (الأهرام)، **(البلاغ)** و**(السياسة)** و**(الوادي)** و**(الجهاد)** في **مصر** آنذاك، وحقق فتحاً تاريخياً في الشعر العربي في هذه السن الباكرة حين ترجم مسرحية **(روميو وجوليت) لشكسبير** بالشعر المرسل المنطلق سنة ١٩٣٦م، ثم أعقبها بتأليف مسرحية **(أخناتون ونفرتيتي)** سنة ١٩٣٨م، وبهاتين المسرحيتين أصبح **علي أحمد باكثير** رائد الشعر الحر باعتراف كثير من كبار النقاد.

وما كاد يتخرج في الجامعة سنة ١٩٣٩م حتى صار علماً من الشعر والمسرح والرواية في **مصر**، ولكن اتجاهه للمسرح أصبح الغالب عليه بعد ذلك. وابتداءً من سنة ١٩٤٢م شغلته قضية فلسطين فتابع أحداثها بمسرحيات قصيرة يكتبها أسبوعياً فكان الوحيد من أبناء جيله الذي حذر من النكبة قبل وقوعها وابتداء من سنة ١٩٤٧م أصبحت مسرحياته أمثال **«سر الحاكم بأمر الله»** و**«أبو دلامة»** **«سر شهرزاد»** وغيرها تتصدر المواسم المسرحية في **مصر**، فنال الجوائز في المباريات الأدبية، وأخرجت بعض رواياته للسينما، ونالت شهرة

واسعة مثل «**سلامة القس**» التي مثلتها أم كلثوم، و«**وا إسلاماه**» و«**شادية الإسلام**». وظل **باكثير** يرتقي في سلم المجد والشهرة حتى أصبح علماً من أعلام الأدب العربي في العصر الحديث. في ٢٢ من أغسطس١٩٥١م أمر مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء ورئيس حزب الوفد الحاكم بمنحه الجنسية المصرية تقديراً لدوره القومي والوطني في طرح قضايا مصر والاستعمار فى مسرحياته ورواياته وقصائده، فسلمها له فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك بنفسه تقديراً له.

وشعر بالاستقرار في **مصر**، وكان لسان حاله ينطق بقول الشاعر:

وأحب أوطان البلاد إلى الفتى

أرض ينال بها كريم المطلب

فنال جائزة الدولة سنة ١٩٦٢م، ومنحه الرئيس جمال عبدالناصر وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى سنة ١٩٦٣م، وحصل على منحة تفرغ لمدة عامين كتب فيها «**ملحمة عمر بن الخطاب**» عامي ١٩٦٣ــ١٩٦٤م فكانت أطول عمل أدبي في تاريخ الأدب العربي.

وفي السنوات الأخيرة من حياته حاربه من كان يسميهم باليسار الانتهازي الذي سيطر على منابر الثقافة في **مصر** وخاصة المسرح، وأُبعد **باكثير** عن عرشه المسرحي، على حد تعبير صديقه الشاعر عبده بدوي. وفي هذه السنوات العجاف أحس بالغربة في **مصر**، فعاد إلى التجوال مرة أخرى وكثرت أسفاره. وحين أعلن استقلال وطنه الأصلي جنوب اليمن في ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٧م شدته الأشواق إليه بعد غياب دام ٣٤ عاماً، فوصل عدن في ٤ من

أبريل ١٩٦٨م، ومنها إلى حضرموت حيث مراتع صباه ورفاق فتوته وشبابه الأول، وغادرها في ٢٠ من مايو ١٩٦٨م إلى الكويت وفي نفسه غُصّة، إذ حذر في حديث له بإذاعة الكويت من سقوط عدن في أيدي اليسار الماركسي، وقد حدث ذلك بعد مغادرته ببضعة شهور وهي الشهور الأخيرة من حياته ولكنه لم يجد السلوة إلا إلى جوار ربه فأسلم الروح في العاشر من نوفمبر سنة ١٩٦٩م مخلفاً وراءه تراثاً أدبياً ضخماً يقرب من ثمانين كتاباً.

❁ ❁ ❁

لم تكن أسفار **علي أحمد باكثير** تقتصر على أسفاره في المكان، بل كان الأهم منها أسفاره في الزمان، فهو من أهم من ترحل بين العصور والحضارات، وسافر في أعماق التاريخ والأساطير، فمن حصاد تجواله في عصور ما قبل الإسلام وحضاراتها كتب «**مأساة أوديب**» من الأساطير الإغريقية، ومن التاريخ الفرعوني كتب «**أخناتون ونفرتيتي**»، و«**الفلاح الفصيح**» و«**الفرعون الموعود**» و«**أوزوريس**» ومن الأسطورة الأوربية المسيحية كتب «**فاوست الجديد**».

أما تاريخه العربي والإسلامي فقد تجول فيه على أحسن ما يكون التجوال روايةً ومسرحاً تأتي في مقدمتها ملحمته عن **عمر بن الخطاب** ومسرحيات «**هاروت وماروت**» و«**سر الحاكم بأمر الله**» ومجموعة «**من فوق سبع سموات**»، ووقف طويلاً في تجواله عن التاريخ السياسي الحديث للأمة العربية والإسلامية مع غزاتها وأعدائها، فكتب عن غزو لويس التاسع **لمصر** مسرحية «**دار ابن لقمان**»، وعن

حملة نابليون ثلاثية «**الدودة والثعبان**» و «**أحلام نابليون** «**ومأساة زينب**». وتجول في تاريخ اليهود عبر العصور **لفلسطين** في مسرحيات «**شيلوك الجديد**»، و«**إله إسرائيل**»، و«**شعب الله المختار**» و«**التوراة الضائعة**»، ولم يترك وطناً عربياً أو إسلامياً إلا وقف عنده في تجواله الفني والفكري، وعرض قضيته وتاريخه منتصراً له من إندونيسيا موطن مولده في أقصى الشرق التي كتب عن استقلالها مسرحية «**عودة الفردوس**» إلى المغرب العربي في أقصى الغرب الذي تابع جهاده ضد المستعمر بعدّة مسرحيات وأناشيد.

وفي الوقت نفسه لم ينعزل **باكثير** عن أحداث عصره الاجتماعية، بل واكبها بعدد من المسرحيات أشهرها مسرحية «**جلفدان هانم**» و«**الدكتور حازم**» و«**السلسة والغفران**» و«**قطط وفيران**» و«**الدنيا فوضى**» و«**قضية أهل الربع**» و«**أغلى من الحب**» و«**حبل الغسيل**»و «**عاشق حضرموت**».

وحين نجيء إلى رحلاته على مستوى المكان نجده قد زار الكثير من بلدان العالم العربي والإسلامي ودول أوربا. وما علمته عن زياراته من أحاديث أسرته **بالقاهرة**، ومن واقع جوازات سفره، وما تركه من ملاحظات في مفكرات جيبه التي عثرت عليها في مكتبه يمكن توثيقه بالترتيب التاريخي لكل سفر أو رحلة.

السفر الأول والأصعب ــ في حياته مغادرته إندونيسيا وطن مولده ــ إلى وطنه الأصلي **حضرموت** وهو في سن العاشرة من عمره سنة ١٩٢٠م، ثم كانت مغادرته **حضرموت** إلى **عدَن** في ١٩٣٢/٦/٢٥م، بادئاً رحلة عمره ومكث في **عدن** عشرة شهور حافلة

بالنشاط الفكري والأدبي وأثناء وجوده في **عدن** سافر بحراً إلى مدينة **هرقيسة بالصومال** مع صديقه الأعز **الأستاذ محمد علي لقمان** رائد النهضة الفكرية والصحفية في **عدن** آنذاك، ثم زار **الحبشة**، واطلع على أوضاع الجالية الحضرمية الكبيرة في أديس أبابا.

ومن **عدن** سافر بحراً إلى **جدة** بادئاً رحلته **للمملكة العربية السعودية** التي استمرت قرابة عام، وقد نشرت جريدة «**صوت الحجاز**» خبر وصوله في عدد الاثنين ١١ من أبريل١٩٣٣م في الصفحة الأولى بعنوان: «**وصول شاعر حضرموت الأكبر**». وغادر **الحجاز** إلى **مصر** بحراً عبر **ميناء** ينبع على الباخرة **الطائف** بعد عام حافل أمضاه بين أدباء **المملكة العربية السعودية** التقى فيه **بالملك عبدالعزيز** وبولديه الأميريْن: **سعود** ولي العهد، و**فيصل** نائب الملك في **الحجاز** وترك في هذه المرحلة تراثاً أدبياً قيماً أهمه ديوان شعري بعنوان:«**صبا نجد وأنفاس الحجاز**» ومحاضرات ــ مذكرات ــ مراسلات مع الأدباء.

وصل باكثير مصر في ١٩٣٤م، واستقر في **القاهرة** ولم يغادرها إلا إلى السودان في رحلة سنة ١٩٤٦م مع مجموعة من زملائه بمدرسة الرشاد الثانوية بالمنصورة التي كان يعمل بها معلماً للغة الإنجليزية، فكان أن كتب عن السودان وقضاياه ثلاث مسرحيات قصيرة هي: **(ملك السودان)** نشرت في ١٩٤٦/١١/٩م و **(بالرفاء والبنين)** نشرت في ١٩٤٧/١/٢٥م و**(الحاجز المستحيل)** نشرت في ١٩٥٤/٣/٩م.

وفي سنة ١٩٥٤م سافر إلى **فرنسا** في بعثة دراسية لمدة شهرين مع عدد من أدباء **مصر** منهم **الشاعر صالح جودت، والروائي محمد عبدالحليم عبدالله** حيث غادر **القاهرة** جواً إلى **باريس** في ٢٤من يوليو ١٩٥٤م، وعاد بحراً من **مرسيليا** إلى **الإسكندرية** في ٩ من أكتوبر ١٩٥٤م. وكان من نتاج تلك الرحلة عدد من القصائد بعضها بالفرنسية التي أتقنها، كما ترجم أيضاً بعض مسرحياته إلى الفرنسية مثل (**سر شهرزاد**) و(**مأساة أوديب**) و(**هاروت وماروت**)، وصفحات من مذكرات ووجدانيات.

وفي سنة ١٩٥٦م ترأس وفد رسمي للأدباء المصريين زار **الاتحاد السوفيتي** و**رومانيا** ضم **د.شوقي ضيف**، و**محمد سعيد العريان**، و**عبدالرحمن الشرقاوي**، و**د.محمد مندور**، وغيرهم.

وفي أكتوبر ١٩٥٨ زار **الاتحاد السوفيتي** و**النمسا** و**رومانيا**، وكان الجزء الرسمي منها إلى **موسكو** و**الجمهوريات الإسلامية** التابعة للاتحاد السوفيتي آنذاك، حيث شارك في (**مؤتمر أدباء آسيا** و**أفريقيا**) الذي انعقد **بطشقند** وبعد انتهائه غادر بمفرده إلى **النمسا** و**رومانيا**، وقد استغرقت هذه الرحلة النصيب الأكبر من هذه المذكرات.

وجدت هذه اليوميات في كراستين من كراسات «نوتة محاضرات» أحدها عنابي وثانيها أخضر غامق مقاس ١٦×٢٢,٥٠سم كتبها جميعها بقلم حبر أزرق غامق، وهو غير اللون الذي اعتاد أن يكتب به، وأقصد به اللون الأخضر الذي كتب به معظم مسودات مسرحياته.

وأظن أنه كتب هذه اليوميات لنفسه دون نية نشرها، وذلك يعود في رأيي لسببين: أولهما أنه لم يكتبها بلغته الأدبية الرفيعة التي اعتدناها منه بل ترك نفسه على سجيتها في كتابة الوصف كأنه يكتب رسالة لصديق أو يتحدث إليه. وثانيهما أنه روى في هذه اليوميات من التفاصيل الشخصية مما لا يمكن أن يرويه فيما لو كان في نيته نشرها. ويبقى الاحتمال الوحيد فيما لو كانت لديه نية النشر لهذه اليوميات في كتاب أنه كان سيعيد كتابتها وينقحها ويحذف منها ما لا يلزم القارئ.

ولهذا كان منهجي في إعداد هذه اليوميات للنشر القيام بعدة خطوات: أولها قراءتها قراءة دقيقة واعية ووضع عناوين لموضوعاتها حتى يسهل على القارئ متابعتها. وثانيها عدم التدخل بالحذف إلا في أضيق الحدود، وذلك بحذف ما اعتقد أن الكاتب لن يبقيه فيما لو أراد إعداد هذه المذكرات للنشر وذلك لمعرفتي بتفاصيل حياته وطريقة تفكيره. وثالثها عملت قدر المستطاع التعريف بالإعلام والأمكنة التي وردت في هذه اليوميات. ومن الصعب التعريف بها جميعاً إذ أن بعض الأسماء لا وجود لها في معاجم التراجم.

وأرى أنه لزاماً علي أن أعترف أنني لم أستطع القيام بكل ما يقتضيه إعداد هذه اليوميات بدافع رغبتي الملحة في

التعجيل بنشرها في هذه السنة التي يحتفل فيها الأدباء العرب والمسلمين بباكثير بإقامة الاتحاد العام للأدباء والكُتّاب العرب ورابطة الأدب الإسلامي العالمية مؤتمراً دولياً عنه بمقر اتحاد كُتّاب مصر بقلعة صلاح الدين بالقاهرة في القاهرة في الفترة من ١-٤ مايو ٢٠١٠م بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لميلاده ـ رحمه الله ـ.

وحسبي أن أضع هذه المادة بين يدي القراء للاستمتاع بتجربتها وبين يدي الباحثين لدراستها لأنها تضيف لوناً جديداً إلى أدب باكثير الغزير والمتنوع الألوان، وهو أدب الرحلات.

محمد أبوبكر حميد

مايو ٢٠١٠م

من طشقند إلى سمرقند

في ١١ من أكتوبر ١٩٥٨م انتهى رسمياً مؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا الذي انعقد بطشقند بدعوة من اتحاد الكتاب السوفيات، وفي قاعة تشايكوفسكي[1] يوم انفضاض المؤتمر، حضرنا وليمة غداء أقامها لنا الوفد الصيني برئاسة الأستاذ ماوتون، وهو قصاص كبير، ومن أشهر قصصه (منتصف الليل) مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، ومجموعة أقاصيص أخرى مترجمة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهو رجل وديع خفيض الصوت كثير التواضع كعادة الصينيين، وحتى في خطابه الذي ألقاه في الحفلة كان كأنه لا يجيد الخطابة. وقد ألقيت كلمات مناسبة في أثناء الطعام كعادة السوفيات إذ لا تخلو مآدبهم من خطب - من كلا الجانبين -، وذكر في خطابه بعض الصلات القديمة التي كانت تربط العرب بالصين، وقال:إنه هو نفسه من منطقة يونان التي سكنتها جالية من العرب.

(١) تشايكوفسكي (١٨٤٠ـ ١٨٩٣م): أعظم موسيقي البالية في روسيا وأشهرهم على مستوى العالم.

وفي أثناء هذه الدعوة جاءت لي وللأستاذ خليل هنداوي[1] دعوة من حكومة جمهورية طاجكستان لزيارة بلادها وحضور الاحتفال العظيم بذكرى مرور ألف ومائة سنة على وفاة شاعرهم الأكبر الذي يعتبرونه آدم الشعراء وأول شاعر كتب باللغة الطاجيكية وهو أبو عبد الله جعفر بن محمد رودكي[2]. وكنا نعتزم زيارة جمهورية جورجيا فلم يسعنا إلا أن نقبل هذه الدعوة الشخصية، وقلنا

---

(١) خليل محمد هنداوي: (١٩٠٦ــ ١٩٧٦م) كاتب وشاعر وباحث وصحفي مواليد صيدا بلبنان ثم انتقل إلى سوريا حيث عمل بالتدريس. رأس اتحاد الكتاب بحلب، وقلما صدرت مجلة أو جريدة دون يكون له في صفحاتها نصيب. من مؤلفاته كتاب «صفحة من حياة رايس» ومسرحية «هاروت وماروت» وقصص «ارم ذات العماد»، و«دمعة صلاح الدين».

(٢) رودكي، أبو جعفر: (٩٤١) أول شعراء الفرس الذين عرف لهم ديوان. ولد في قرية رودك من قرى سمرقند، وحفظ القرآن وتعلم الموسيقى، وكان حسن الصوت، كفيفا. التحق ببلاط السامانيين، وخاصة نصر بن أحمد (٩١٣-٩٤٣)، وانتقل معه في رحلاته، وأثرى ثراء عظيماً. وتروي كتب التراجم قصته مع الأمير نصر الذي أخذ يتنقل بين بادغيس وهراة أربع سنوات، فاشتاق الجند ورجال الحاشية إلى بخارى حيث أولادهم، وطلبوا إلى رودكي أن يضع لحنا يحرك السلطان إليها: «فإن قلوبنا قد أفعمها الشوق إلى أولادنا، وأرواحنا بلغت الحلقوم حنينا إلى بخارى)، فقبل رودكي، ووضع قصيدته المشهورة: « ما يزال يهب علينا عرف جيحون، وما يزال يهب علينا عرف الحبيب»، ثم أخذ الرباب وشرع ينشدها في نغمة المشتاق، فلما بلغ رودكي: «أن الأمير وبخارى البستان، والسرو لا يزال متجها نحو البستان)، بلغ تأثر الأمير أن نزل عن التخت، وأسرع غير منتعل فركب فرس النوبة، وتوجه شطر بخارى. وقد ظل ديوان شعره غير مكتمل، جمع جزءاً منه ونشره سعيد نفيسي، مع دراسة مفصلة. ويقال إن رودكي نظم ترجمة فارسية لكليلة ودمنة. وقد شجع السامانيون رودكي، فقد عمدوا إلى إحياء الآداب الفارسية وإبراز اللغة الفارسية، فترجموا الآثار العربية الهامة كالطبري، وتاريخه وتفسيره، وشجعوا الشعراء، فكان أن أتيحت لهم عبقرية رودكي في هذا الميدان.

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ (البقرة:٢١٦)، وهكذا تقرر سفرنا إلى طاجكستان في اليوم التالي لانفضاض المؤتمر.

وكنت قد توعكت ولزمت سريري يومين من أيام المؤتمر وأحدهما اليوم الذي خصصوه للراحة قبل إصدار القرارات. زارتني الطبيبة في خلالها ثلاث مرات، وأعطتني دواء يشبه الإسبرين كما أوصت بأن تعمل (كاسات هواء) مرتين كان لهما أحسن الأثر على صحتي، فخفف عني أثر البرد الذي أصابني، والذي ظهر في صورة سعال شديد مع انحطاط في القوى. وكنت أخشى من تلبية دعوة طاجكستان أن يعاودني المرض إذ مازالت آثاره واضحة عندي إذ ذاك، ولكنني توكلت على الله ورأيت أن من الواجب تلبية الدعوة إلى هذه الجمهورية الإسلامية:



باكثير في رحلة سنة ١٩٥٦م لرومانيا وروسيا ويظهر معه محمد سعيد العريان ود.محمد مندور.

حـــوار مـــع مُلحِـــدة:

غادرنا الفندق في طشقند في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر إلى المطار، حيث ركبت طائرة متوسطة ذات محركين ذكّرتني بالطائرة التي سافرنا بها من طشقند إلى سمرقند في رحلتنا الأولى، وكانت الرحلة ممتعة لم نشكُ منها شيئاً.

جلست إلى جانبي في الطائرة فتاة روسية تدعى إيليني على جانب من الجمال، ولها قسط من الأناقة غير كثير. وبالتحدث إليها عرفت أنها تعمل مترجمة في أثناء المؤتمر، وأنها تقيم في ستالين آباد[1] عاصمة طاجكستان حيث تعمل مدرسة لبعض اللغات الأجنبية واللغة البرتغالية بالذات، وأن أصلها من موسكو.

وتشعب الحديث بيننا باللغة الفرنسية. سألتني عن أعمالي الأدبية وعن حالة المسرح في مصر وعدد المسارح ..إلخ. فشرحت لها كل ذلك في إيجاز. وألقيت عليها أنا بدوري بعض الأسئلة، وكان أهمها أن سألتها: هل تؤمنين بالله؟ فأجابت بالنفي، فلم أظهر أي دهش، بل واصلت سؤالي عن السبب، فقالت: إن ذلك وهم من الأوهام وليس بحقيقة، وإنه يجب على الإنسان ألا يتعلق بمثل هذا الوهم لأنه يعطل من سيره نحو التقدم ويحول بينه وبين تقرير مصيره بنفسه... إلخ.

(١) ستالين آباد: اسمها الأصلي دوشنبه عاصمة طاجكستان وفي عهد الدكتاتور الشيوعي ستالين سنة ١٩٢٩م أطلق عليها اسم ستالين آباد. وعندما قاد خروشوف الحملة ضد الستالينية سنة ١٩٦١م أعيد للمدينة اسمها الأصلي. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩١م أصبحت عاصمة جمهورية طاجكستان المسلمة المستقلة

فقلت لها: وما يدريك أنه وهم من الأوهام وألا يكون حقيقة تجهلينها؟ انظري إلى قوة الكهرباء هل كان الناس يعرفونها قبل خمسين سنة؟ فقالت: لا. فقلت لها: أليست اليوم حقيقة ملموسة؟ فكيف نستطيع اليوم أن نقطع بأن وجود الله وهم؟ وقلت لها أيضاً: ثم ماذا يمنع المؤمن بالله من تقرير مصيره بنفسه؟ إنه مهما يعمل في طريق التقدم والرقي فلن يصطدم أبداً بإيمانه. إن الإيمان بالله لن يحول بينه وبين أن يفعل ما يريد. بل لماذا لا يعتقد هذا المؤمن بأن الله الذي أوجد هذا الكون وجعل له سنناً ونواميس لم يظهر للإنسان منها إلا القليل، لأنه يريد من الإنسان أن يعمل ويجد لاكتشافها؟ أنا معك ياسيدتي في أن كثيراً من الطقوس الدينية ــ ومعظمها من صنع القسس ــ كانت في الماضي تحول دون التقدم ولا تتفق مع طموح الإنسان الجديد، ولكن ذلك ليس من جوهر الدين الذي يتفق مع الإيمان بالعلم ويعده متمما للإيمان بالله. ثم ختمت قولي لها مداعباً: إني أعتقد أن لينين[1] لو رأى النجاح الذي أحرزتموه اليوم لأطمأن إلى أنه من المستحيل القضاء عليه. ولما رأى بأسا أن يعترف بوجود الله، فليس في الإيمان بالله ما يتناقض مع تطبيق هذا النظام الاشتراكي المعمول به في بلادكم، بل يعززه ويقويه ويبارك خطاه. فضحكت الفتاة على شيء من التردد والحياء ففهمت أن لسان حالها يقول لي: هذا لا يهمني كثيراً!

(١) لينين: (١٨٧٠ــ ١٩٢٤م) مؤسس الحزب الشيوعي في روسيا، وقائد ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧م التي أقامت أكبر دولة شيوعية كبرى في العالم انتهت بفشل تطبيق النظرية الشيوعية. وتفكك هذه الدولة ونهايتها على يد الرئيس جورباتشوف.

ولما لمست أن لديها رغبة في الاستمرار بالاستماع إلي ما، قلت لها: لندع الآن البحث في أن وجود الله حقيقة أم لا. أليس الإيمان بالله أصلح للبشرية من الكفر به؟ أليس في الإيمان باليوم الآخر - مثلاً- سلوان للإنسان يتقوى به في هذه الحياة القاسية القصيرة الأجل؟ سيعرف الإنسان على الأقل أنه سيجتمع يوماً بأبويه اللذين ماتا وبأحبائه المتوفين! ألا ترين أنه من القسوة المؤلمة على الإنسان أن يعتقد بأن مَن يفارقهم من أحبائه لن يقابلهم أبد الآبدين؟ واستشهدت لها بقول فولتير[١] إذ يقول: «لو لم يكن وجود الله حقيقة لكان علينا أن نوجده»!



وعند مغادرتنا طشقند دار بيني وبين فتاة روسية ملحدة حوار عجيب..!

(١) فولتير: (١٦٩٤ـ ١٧٧٨م) فيلسوف ومفكر فرنسي، وكاتب مسرحي نال شهرة كبيرة. أدت به أفكاره المتحررة من قيود الكنيسة إلى السجن، وعندما مات رفضت الكنيسة دفنه وفق الطقوس المسيحية. اطلع في آخر حياته على ترجمة القرآن الكريم وأعجب بالإسلام وكتب مسرحية عن الرسول ﷺ بعنوان: «محمد» الأمر الذي زاد من غضب الكنيسة عليه.

لقاءات طاجكستان

واتصل بنا في الرحلة رجل كهل لا أذكر اسمه تبين أنه من الكتاب الروس الذين أحبوا بلاد طاجكستان منذ صغره، وعني بدراستها وبحث أمورها، وله مجموعة قصص بين طويلة وقصيرة عن حضارتها. قال لنا انه يعرف عنها أشياء كثيرة، وقد مسحها بالسير على الأقدام وبركوب الخيل وطاف بأرجائها وقراها قرية قرية منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ظل خلالها يواصل زيارتها كل عام. والحقيقة أنه رجل لطيف ظريف يلذ له أن يتحدث عن طاجكستان بحب وشغف، وقد تطوع فشرح لي المناطق والجبال والأودية التي كنا نمر بها في الجو وارتفعت الطائرة إلى أكثر من أربعة آلاف متر ودارت حول الجبال العالية لاتقائها حتى أفضينا إلى وادٍ فسيح هو «وادي أسار» حيث تقع طاجكستان وعاصمتها ستالين آباد.

وما أن هبطت الطائرة بنا حتى وجدنا المستقبلين من الطاجيكيين يحملون لنا باقات الزهور فأعطوا كل واحد منا باقة. وحملتنا السيارات إلى نزل جميل تحيط به الحدائق من كل جانب مما يذكرني بذلك النزل الذي أقمنا به في طشقند في رحلتنا الأولى، إلا أن هذا النزل أفخم وأجمل.

وكان معنا في الرحلة الأستاذ محمد صادق بحر العلوم(١) الشاعر العراقي الذي ظل سجينا في عهد حكومة عبدالكريم قاسم(٢) المستبدة مدة طويلة، وقد حضر إلى المؤتمر في أواخر أيامه، وانضم إلى الأستاذ عبد الرزاق محيي الدين الذي رأس وفد العراق. والأستاذ بحر العلوم رجل صافي القلب طيب السريرة، ويشعر بشيء من الاستحياء، ولعل ذلك لما لحقه من الأذى الطويل، ولأنه لا يعرف أي لغة أجنبية فكان قليلاً ما يتحدث وإذا تحدث كان حديثه المفضل عن أخبار سجنه وتعذيبه، فهو يروي في ذلك نوادر كثيرة لا نهاية لها.

ونزلنا نحن الثلاثة في حجرة واحدة متسعة بها ثلاثة سرر، ومنذ وطئنا أرض طاجكستان شعرنا بارتياح كبير لصفاء الجو واعتداله فهو أقل برودة من جو طشقند، والحفاوة التي قوبلنا بها أعظم من الحفاوة في طشقند، لأن عدد الوفود هنا قليل بالنسبة لوفود طشقند فاستطاع المنظمون أن يحتفوا بنا أكثر، ويبالغوا في إكرامنا، فقد خصصوا مثلا سيارة خاصة لوفد الجمهورية العربية المتحدة، أي لي أنا والأستاذ الهنداوي، وسيارة أخرى لوفد الجمهورية العراقية أي للأستاذ بحر العلوم وحده.

(١) محمد صادق بحر العلوم (١٨٩٧ـ ١٩٧٩م)، باحث وقاض من فقهاء الشيعة بالعراق، عاش بين النجف والبصرة وله عدة مؤلفات منها: (مصدر التشريع لنظام الحكم في الإسلام)، و (دليل القضاء الشرعي).

(٢) عبدالكريم قاسم (١٩١٤ـ١٩٦٣م) قاد الانقلاب على النظام الملكي في العراق في ثورة ١٤ من يوليو ١٩٥٨م وقتل الملك فيصل الثاني ونكل بالوطنيين والقوميين وسحلهم .انتهى حكمه بقتله وتمثيل الشعب بجثته سنة ١٩٦٣م.

وقد نزل معنا في المسكن نفسه وفد الصين، ووفد أنجولا، ووفد تشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية، ورجل صحفي من البريطانيين يعمل مراسلاً لجريدة أمريكية في نيويورك، وهذا الصحفي قد زار مصر في أثناء مؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي، وهو يشكو كثيراً من انقطاع أخبار العالم عنه في أثناء إقامته بالاتحاد السوفياتي، ثم أخذ يعلل ذلك ويعتذر له بأن ذلك ربما يكون أفضل للرجل العادي حتى لا يثقل ذهنه بتفاصيل أخبار البلاد الأخرى، كما علق على ذلك بالنسبة لأمريكا قائلاً: إن الأمريكيين مثلاً متخمون بالأخبار والتفاصيل التي يغلب على أكثرها الكذب والتزوير، فلا أدري أهو ينقد الاتحاد السوفياتي أم يقرظه؟



في طاجكستان شعرنا بارتياح كبير لصفاء الجو واعتداله فهو أقل برودة من طشقند

وفي الوفد الصيني تعرفت على رئيسه الأستاذ ماوتون، وتعرفت بأحد الشخصين اللذين يمثلان أنجولا البرتغالية وهو شاب لطيف على جانب من الثقافة يدعى (viriato da cruy) فهمت من حديثه عن نفسه أنه لا يستطيع العودة إلى بلاده، وأنه يقيم الآن في ألمانيا الغربية في مدينة فرانكفورت، ويعمل في دار للترجمة والنشر ويقيم في بيت سيدة تعمل هي أيضاً مترجمة وتهتم بالأدبيات الإفريقية، ولما علم أن عندي نسخة من مسرحيتي (مأساة أوديب)(١) عرض علي متفضلاً أن يقوم هو بتوصيلها إلى الدار التي يعمل فيها لينظر في ترجمتها إلى اللغة الألمانية ونشرها في كتاب أو في إحدى الصحف قائلاً: إن ذلك قد يفتح لها الباب لإخراجها على أحد المسارح، فوعدته بتسليمه النسخة إلا أنني لقيت بعد ذلك شاباً آخر من ألمانيا الشرقية اسمه الدكتور يوسف شماخر أخذ يسألني عن آثاري الأدبية وهل عندي منها شيء؟ فلما أخبرته عن هذه المسرحية ألح علي أن أعطيها إياه ليترجمها هو أو يكلف أحداً بترجمتها في الدار التي يعمل فيها أيضاً من دور ألمانيا الشرقية، فتحيرت لأيهما أعطي المسرحية ولم أبت في ذلك حتى الآن(٢).

---

(١) مأساة أوديب: صدرت سنة ١٩٤٩م، أعاد فيها صياغة الشكل الأسطوري فنياً بعد أن حررها من عنصر الخرافة الوثنية، فجعل النبوءة التي تقول بقتل أوديب لأبيه وزواجه من أمه من تدبير الكاهن وليس من وحي الإله.

(٢) لم أجد بين أوراقه ما يدل أنه أعطاها لأحدهما ولكن هذه المسرحية ترجمها إلى اللغة الفرنسية بنفسه ولا تزال النسخة الفرنسية مخطوطة.

في مسرح ستالين آباد

وبعد أن استرحنا قليلاً وتغدينا ذهبنا في الساعة الثامنة إلى المسرح الكبير في ستالين آباد حيث شاهدنا قصة راقصة (باليه) باسم (باليه ليلى والمجنون)، مأخوذة طبعاً من القصة العربية الخالدة، وقد كتب القصة أحد أدباء طاجكستان، وقام بتلحينها موسيقار روسي كبير مولود في مدينة عشق أباد، إلا أنه تعلق بطاجكستان منذ تخرج من الكونسوفاتوار بموسكو فأخذ يجمع ألحانا فولكلورية حتى جمع منها نحو خمسمائة لحن ثم استوحاها في كثير من أعماله الموسيقيّة، وهذا الباليه يعتبر من أهم أعماله وقد نال جائزة ستالين واعتبر فنان الشعب، وهو أكبر لقب يحصل عليه الفنان في بلاد السوفيات وأقل منه درجة لقب فنان الشعب لجمهورية من الجمهوريات.



شاهدنا الباليه فشهدنا عجباً عجاباً في الديكور المعجب والأداء والموسيقى التي بلغت حد الروعة، وفي التمثيل أيضاً وفي تحريك المجموعات وتوزيع الإضاءة بحيث استطعنا أن نفهم بسهولة قصة الباليه دون كلمة واحدة تنطق على المسرح وإنما يعبر عن كل شيء بالحركة وبالإيحاء.

وكان عدد الممثلين والممثلات والمؤدين كبيراً جداً لعله لا يقل عن مائة شخص ورأيت فيها أعاجيب من فن الرقص المعبر الجماعي والفردي، وعدنا من الحفل حوالي الساعة الحادية عشرة فتعشينا عشاء خفيفاً لطيفاً ثم ذهبنا إلى مراقدنا متعبين.

الطراز إسلامي والحروف عربية:

وفي اليوم التالي ذهبت في جولة سريعة حول المدينة، فزرنا دار كتبها، واستادها، والبحيرة الصناعية التي حفرها الشباب خارج المدينة لتكون مغتسلاً ومسبحاً لهم في الصيف حيث وصلوها بالنهر الذي يخترق المدينة. وقد نظرنا إلى الجبال العالية فوجدناها مكللة بالثلوج، ومع ذلك فقد قيل لنا: إن درجة الحرارة في الصيف تبلغ أربعين في الظل. والمدينة جميلة كثيرة الحدائق والأشجار على طول الطرق، ومساكنها منخفضة تشبه مساكن طشقند، والطراز فيها أيضاً طراز إسلامي إلى حد كبير لعله يشبه الطراز الفارسي، فقد اكتشفنا أن اللغة الطاجكية هي اللغة الفارسية نفسها مع تغيير بسيط في بعض الكلمات وفي النطق بحيث يمكن أن يتفاهم الذي يعرف الفارسية مع الطاجكيين بسهولة. وكان أول من كشف هذه الحقيقة صاحبنا الأستاذ

بحر العلوم الذي فوجئ بأنه يفهم لغتهم لأنه يعرف قليلاً من الفارسية، فاستغنى بذلك عن المترجم، ولاحظنا أيضاً أنهم لم يتركوا الكتابة بالحروف العربية على الرغم من أن الكتابة الرسمية بالحروف الروسية أسوة بغيرها من الجمهوريات، فكان كثير من الصحف والمجلات تصدر بالحروف العربية كما رأيت بعض اللافتات على الواجهات بهذه الحروف، فشعرت بارتياح كبير، ولكن الحروف التي تعلم في المدارس هي الحروف الروسية.

عند مدفن الشاعر رودكي:

وبعد أن تناولنا غداءنا مسرعين دلفنا إلى مكان الاحتفال بذكرى الشاعر رودكي في المسرح نفسه الذي شاهدنا فيه (باليه مجنون ليلى)، وقد امتلأت القاعة بالحاضرين، ووضعنا نحن مع رؤساء الوفود من الاتحاد السوفياتي وغيره على منصة الخطابة حيث سلطت علينا الأضواء الكاشفة وصفقت الجماهير ترحيباً بالضيوف، وألقيت كلمات التعريف بالشاعر والتحيات من الوفود، وكنت قد أعددت قصيدة قصيرة في الموضوع فلما نودي باسمي نهضت إلى المنصة فألقيتها بعد أن ارتجلت كلمة قصيرة في تحية الاحتفال باسم الجمهورية العربية المتحدة، وقد جاء المترجم الروسي السيد صيني مارون وهو مصري الأصل أبوه كان من سكان الإسكندرية فترجم القصيدة بعد إلقائي إياها إلى اللغة الروسية فصفق لي الحاضرون طويلاً، وطلبها مراسلو الصحف الروسية لنشرها في صحفهم وكان ذلك يوم ١٥ من أكتوبر ١٩٥٨م في ستالين آباد وهذا نصها:

ليهنكَ روكي أن يكرِّمك الشعب   فإنك منه الروح والعقل والقلبُ
ألستَ حياةَ الشعب، منك استمدها   تعانق فيها الجدُ والعزُ والخصبُ؟
ألستَ له عقلاً ينير سبيله   إلى حيثُ يستهويه المطلب الصعب؟
إلى حيثُ يستهويه إنشاءُ عالمٍ   يسود السلامُ فيه والخير والحُبُ
ألستَ له القلبَ الذي جاش بالهوى   كأجمل ما غنَى به عاشقٌ صَبُ
فأقبست شعب الطاجكستان جذوةً   من الحُبِّ يعلو نورُها الدهرَ لا يخبو
بشعرك يا روكي، شعرك وحده   بلغت مقاماً لا تطاوله الشعبُ
أتتك وفود الشرق والغرب تحتفى   بذكراك حتى وُحَد الشرق والغرب
يضمها في عيد ذكراك منصلٌ   من الشعر فيَاضٌ هو الكوثر العذب

وقد لاحظت أن الجمهورية العربية المتحدة بل العرب على العموم محبوبون في هذه البلاد أكثر من غيرهم من الوفود وكانوا يحيوننا دائماً بكلمة (سلام عليكم) كما لاحظنا أن عدد الكلمات العربية في اللغة الطاجكية أكثر من عددها في اللغة الأوزبكية، وقد جلس عن يميني في الحفل في صدر المجلس مندوب أفغانستان، وعلي يساري الكاتب الروسي الكبير تيخونوف[1]، ومن حسن حظي أن وجدت أفغاني يفهم العربية وإن كان فيها شيء من العسر، فاستطاع أن يشرح

(١) تيخونوف: (١٨٩٦ـ ١٩٧٩م) كاتب وشاعر وروائي روسي تأثرت أعماله الإبداعية الأولى بأحداث الحرب العالميتين الأولى والثانية، وقيام الثورة البلشفية في روسيا. رغم شهرته الكبيرة إلا أن شيئاً من أعماله لم يترجم إلى العربية فيما أعلم.

لي كثيراً مما يدور في المجلس إذ لا يوجد جهاز ترجمة إلا باللغة الروسية فقط، وقد حدثني الأفغاني أن الشاعر رودكي معروف في الفارسية، وأنه يسمى آدم الشعراء لأنه أول من كتب باللغة الطاجكية (الفارسية المصفاة من الكلمات الأجنبية أي العربية) وعقب على ذلك قائلاً: هذا لقب لا داعي له، وقال: إن رودكي هذا نَظَم ثلاثمائة ألف بيت ولكن لم يبق منها غير ثلاثمائة بيت أو خمسمائة على الأكثر، وأن ابن الأثير[1] في تاريخه الكامل قد ذكره باختصار، وأنه كان يعيش في عصر المتوكل[2] وتوفي بعد ثلاثمائه أي في القرن الرابع الهجري، وأنه ولد في هذه النواحي، وتنقل بين سمرقند وبلخ، ولكنه لم يرحل إلى البلاد العربية، وأنه كُفَّ بصره في آخر أيامه واستمر الاحتفال حوالي ست ساعات جعلت في أثنائها استراحة قصيرة فشعرنا بالإرهاق، ولذلك لم أذهب إلى الحفلة الموسيقية في الساعة التاسعة، وفضلت البقاء بالمنزل حيث أكتب هذه الكلمات.

وفي اليوم الثاني نزلنا في ستالين آباد، فذهبنا إلى أكاديمية العلوم حيث عقدت جلسة خاصة للاحتفال أُلقيت فيها دراسات عن الشاعر رودكي سجلتها في المذكرة، وانتهت بشرح عن الرسام السوفياتي الذي رسم صورة للشاعر عن طريق دراسة جمجمته، وقد

(١) ابن الأثير: (١١٦٠ـ١٢٣٣م) مؤرخ عربي معروف صاحب كتاب (الكامل في التاريخ).

(٢) المتوكل (٨٢٢ـ ٨٦١م) عاشر الخلفاء العباسيين حكم من ٨٤٧ إلى ٨٦١م، عرف بمحاربته للمعتزلة وتمسكه بالسنة.

اشترك مع جماعة من العلماء والباحثين في اكتشاف قبر الشاعر بمعونة من الشاعر صدر الدين العيني الذي توفي سنة ١٩٥٣م، والذي يعد حجة ومؤسساً للأدب الطاجيكي الحديث، وهو الذي دلهم على موضع قبره في قرية صغيرة تلتقي فيها خمسة أنهر على بعد أميال من ستالين أباد، وتقع بينها وبين سمرقند.

وكان شرح الأستاذ ممتعاً جداً بواسطة الفانوس السحري، وكيف أنه درس أدب رودكي أولاً فعرف منه أنه كُفَّ بصره في آخر أيامه وأنه سقطت أسنان فكه الأسفل كلها، فقال لنفسه: إذا وجدنا الجمجمة على هذه الهيئة بدون أسنان الفك الأسفل فإن ذلك علامة صادقة على صحة أن العظام عظامه، ونبشوا القبر ووجدوه مسجى على الطريقة الإسلامية (اللحد) مع وضع يديه إحداهما على الأخرى بهيئة المصلي، ولدهشتهم وجدوا هذه العلامة المميزة سقوط أسنان الفك الأسفل وآثار سمل في عينيه، مما قطع أن القبر قبر رودكي.

وقبل ذلك حاضرنا في الطريقة الألمانية لهذا الفن فن الرسم بواسطة الجمجمة، ولم يقتصر فن الرسم على وجهه فقط، بل رسم أيضاً صدره من فقار ظهره، وقد تبين أن عظامه نحيفة مائلة إلى الخلف، مما يدل على أنه عاش أعمى مدة طويلة، والأعمى في الغالب يرفع رأسه إلى ناحية الخلف، إلى آخر التفاصيل الممتعة في الاستنساخ والاستدلال على أن هذه العظام هي عظام رودكي.



ألقيت في طاجكستان كلمة الجلسة باسم سبعين مليوناً من العرب أي باسم الأمة العربية، قلت فيها: «إن سبعين مليوناً من العرب يحبونكم كما تحبونهم منذ جمعتكم بهم أواصر القربى في الإسلام ويذكرون إسهامكم العظيم في الحضارة الإسلامية».

تحدثت باسم الأمة العربية

وفي المساء ذهبنا إلى حفلة رسمية أقامها رئيس جمهورية طاجكستان في قصر الحكومة الرسمي الذي بُني حديثا على سفح الجبل في مكان مرتفع جميل يطل على المدينة كلها، فكانت حفلة زاهرة، وقد أجلسنا نحن إلى جانب رئيس الحفلة وهو رئيس الديار نادر شاه دوت خدويوف، وهو طاجيكي من باميرا. أما رئيس الجمهورية فاسمه ميرزا رحمانوف مما يدل على عنايتهم بالجمهورية العربية المتحدة، وقد حضر الحفلة ما يزيد على مائة وخمسين شخصاً من الوفود ومن وجهاء البلد وأدبائه، وأُلقيت الخطب كعادتهم في أثناء المائدة، وقد توالت الوفود، وألقى الأستاذ خليل الهنداوي كلمة باسم الجمهورية العربية المتحدة، والأستاذ بحر العلوم باسم الجمهورية العراقية، ثم ألقيت أنا كلمة الجلسة باسم سبعين مليوناً من العرب أي باسم الأمة العربية جمعاء، قلت فيها: «إن سبعين مليوناً من العرب يحبونكم أيضاً كما تحبونهم منذ جمعتكم بهم أواصر القربى في الإسلام ويذكرون إسهامكم العظيم في الحضارة الإسلامية، ويودون لو أتيحت لهم الفرصة لحضور احتفالكم بشاعركم» ثم قلت: «لقد كان في الماضي شاعر عظيم دعا إلى المحبة والإنسانية والسلام هو شاعر طاجكستان الأول جعفر محمد رودكي والآن فلْندعُ نحن جميعاً إلى الإخاء والمحبة والسلام» واستمر الحفل إلى ساعة متأخرة بالليل.

في بيت مسلم

وفي صباح اليوم التالي ذهبنا بالسيارات إلى (وادي وحش)، حيث قام مشروع عظيم لإروائه بعد أن كان صحراء قاحلة، وقد أطلقت إليها المياه من نهر آمو (جيحون) فقام في هذا الوادي حوالي ٣٥ كولخوزًا زرنا إحداها وهو الكولخوز المسمى كولخوزجوركي وطفنا به، ثم تناولنا الغداء في منزل رئيس الكولخوز، ومما سمعنا شرحه أن الدولة تأخذ ١٠% من الإيرادات وأن تسعين في المائة يصرف على مصالح الجماعة في مستشفى ومدرسة... إلخ.

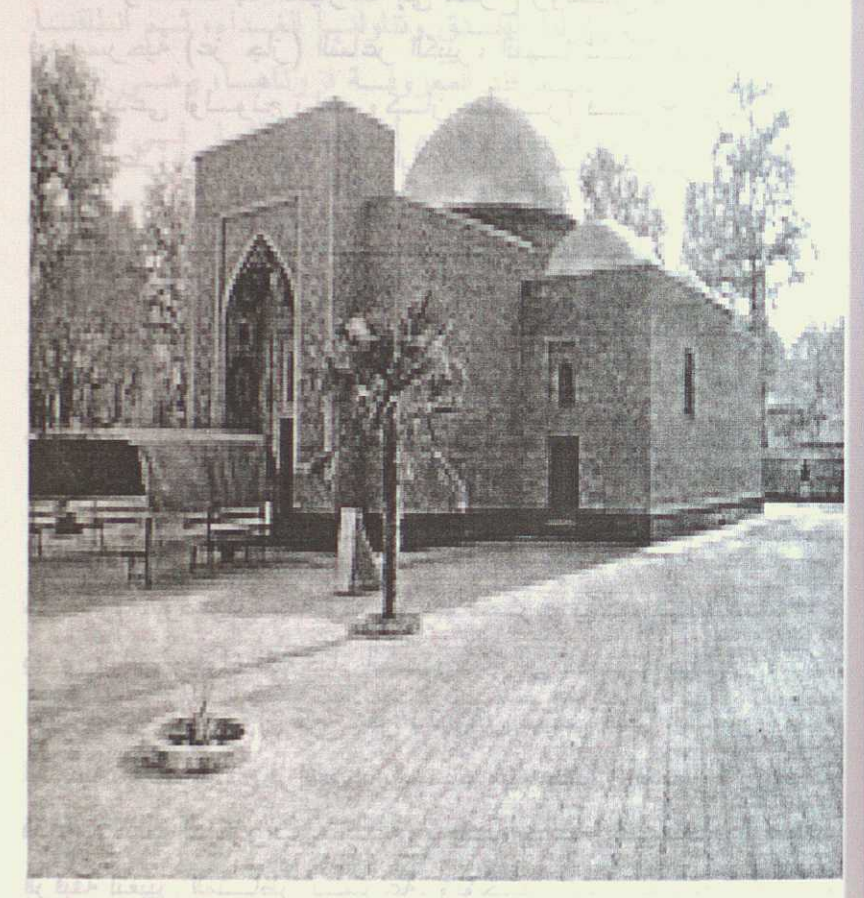
وكان إيراد الكولخوز في العام الماضي (١٩٥٧م) ٣٢ مليون روبل، ومما رأيناه منابت شجر الليمون، حيث حفرت خنادق طويلة لزرع أشجار الليمون يمكن أن تغطى أو تسقف بالزجاج في الشتاء لحمايتها من برد الشتاء القارص، وقد جنينا ثمار الليمون وهو كبير الحجم جداً أكبر من البنزهير المعروف لدينا، والعجيب أننا وجدنا الوادي لايزال يحمل الاسم العربي (وادي وحش) هكذا يسميه أهل البلاد، والمسافة بين هذا المكان وبين البلد تقطعه السيارة في أكثر من ساعتين.

ولم نكد نستريح قليلاً في المثوى حتى استعجلونا للذهاب إلى بيت رئيس أكاديمية العلوم في ستالين أباد وهو السيد الدكتور ساخان عمروف، وقد استقبلنا على بابه السيد نادرشاه رئيس الوزارة نفسه، وجلسنا على مائدة كبيرة حافلة بما لذ وطاب، ودُعي إليها حوالي عشرين مدعوا ومدعوة من علماء طاجكستان وأدبائها وفنانيها، وقد اهتم الداعي بالعلماء خاصة وهم شبان لا يتجاوز أكبرهم سنا الخامسة والأربعين.

والمنزل جميل جداً، والمائدة مثل طراز البيوت والمساجد منقوشة بالنقوش البديعة على الطراز الشرقي القريب جداً من أذواقنا، وكنا متخمين من مائدة الكولخوز فلم نستطع أن نأكل إلا قليلاً على سبيل المجاملة للمضيف الذي كان يدور على المدعوين طوال الحفلة لا يستقر في مكانه إلا قليلاً، ويقدم للضيوف الألوان لوناً بعد لون مما اضطرنا إلى تناول شيء منه مجاملة له، وكذلك تفعل زوجته سيدة البيت، وكان يقول إذا حاولنا الامتناع: «هذا لون صنعته زوجتي بيدها وإنني سأغضب وستغضب زوجتي إذا لم تتناول منه»!

وأُلقيت على المائدة الخطب كالعادة، وقد ألقيت أنا كلمة صغيرة نوهت فيها بالعلماء الحاضرين، وأننا معشر الأدباء نشعر بالضآلة حيالهم لأنهم أنفع منا للمجتمع، وقلت: إن كانت بطوننا قد امتلأت وشبعت فلا نستطيع أن نأكل من هذا الطعام الطيب الذي قدمه المضيف إلينا فإن أرواحنا لحسن الحظ لا تشبع... لا تشبع من إنسانيتكم ورقتكم ولا تشبع من هذه الوجوه الجميلة.

وفي نهاية الحفل قدم إلينا المضيف طواقي طاجكية مثل الطواقي الأزبكية، وذلك بأن خلع على كل واحد طاقية وهو يعتذر ويقول: إنها هدية متواضعة جداً لقصد التذكار، وقدمت إليه عند الخروج مصحفاً فقبله بأدب واحترام، وقال: إننا جميعاً بدأنا دراستنا بالقرآن، وهو رجل كهل متواضع إلى أقصى الحدود وأنيس بشوش، وهو قريب الملامح من المصريين لا تكاد تفرقه عنهم.



المساجد منقوشة بالنقوش البديعة على الطراز الشرقي القريب من أذواقنا

مسرحية عن رودكي:

وانطلقت بنا السيارات إلى مسرح رودكي حيث تعرض فيه مسرحية (عز جاز) الشاعر الكبير، ألفها شاب في الثلاثين تقريباً يُدعى أولونج زاده، وكان حاضراً فشرح كثيراً مما غمض عليّ في الرواية، والرواية لا بأس بها بالنظر إلى أنها رواية بيروقراطية وقد حكت حياة رودكي من شبابه إلى شيخوخته. حيث كان يعمل في بلاط أمير هراة شاعراً ممتازاً مقرباً من الشاه، وكان قد وقع في حب جارية تملكها الملكة زوجة الشاه، وكان ذلك سبباً لنكبته فيما بعد إذ اتهم بالاتصال بالثوار القرامطة الذين كانوا يقومون بحركة سرية لتحريض العامة على الدولة فَسُمِلَت عيناه وبقي أعمى يعلّم المريدين الأدب والشعر. وكان هذا كله في عهد شاه آخر غير الشاه الذي كان يقرّبه، وصودر بيته وما يملك فخرج يهيم في الشوارع يهدي الناس ويقول في ختام المسرحية: إن ذهبت عيناي فإني الآن بصير بقلبي، وإن نُزع مني بيتي فإن بيتي في الشارع مع الشعب. أما الإخراج فرائع جداً استخدمت فيه الأضواء ببراعة فائقة، وكذلك الديكورات جميلة وثمينة جداً، وتستخدم الستائر الرقيقة لتغيير المناظر بسرعة. ويؤخذ على المسرحية أنها طويلة جداً تتقطع مشاهدها مراراً كثيرة.

تحت قبة سمرقند:

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي يوم ١٧ من أكتوبر ذهبنا إلى سمرقند على أمل أن نزور بُخارَى أيضاً، فوصلنا في ساعة وعشر دقائق، ونزلنا الفندق وتناولنا الغداء، ثم انطلقنا إلى حيث تقوم آثار سمرقند المعروفة فزرناها، وهي نفس الآثار التي زرناها من قبل. والواقع أن هذه الآثار في حاجة إلى العناية والترميم ولاسيما تلك القبة العالية لجامع (سي خانم) التي لا توجد قبة جامع أعلى منها، وقد تحدث بهذا الرأي أيضاً الأستاذ راجا أناند الكاتب الهندي المعروف قائلاً: إن هذه الآثار تمهيد للفن الذي بلغ أوجه في الهند في تاج محل، فلولا آثار سمرقند هذه ما وجدت آثار الهند، يقصد آثار الدولة المغولية في الهند. وتحدث المهندس عن عبقرية أكبر[1] حديثاً مستفيضا.

وفي طريقنا إلى سمرقند تعرفت أيضاً بالسيدة الشاعرة برايجوت، وهي سيدة في الخامسة والثلاثين، جميلة ترتدي الزي الهندي الأنيق. وعلمت منها أنها تكتب الشعر والقصة القصيرة وأدب الأطفال، وجمعت شيئاً من الفولكلور الهندي،

(١) أكبر: (١٥٤٢ـ ١٦٠٥م) إمبراطور الهند المغولي حكم ١٥٥٦ إلى ١٦٠٠م أعظم الأباطرة المغول اسمه الأصلي جلال الدين ولقب أكبر لأعماله العظيمة، استعاد حكم البلاد بعد أن تمزقت في عهد والده. رغم أنه كان أمياً إلا أن بلاطه كان غاصاً بالعلماء انحرف عقدياً سنة ١٥٨٢م حين أعلن ديناً جديداً أسماه «الدين الإلهي» انتهى بوفاته. ويقترن اسم أكبر بوزيره أبو الفضل الذي كتب سيرة بليغة عن أكبر وإصلاحاته وأعماله.

وهي تكتب باللغة البنغالية، وتكتب أحياناً بالفارسية. وقد أعطتني قصيدة لها مترجمة إلى الإنجليزية ففهمت منها أنها تميل إلى الشعر الغنائي مع التصوف وحب الحياة، وعرفتني أنها مغرمة بالشعر وأن زوجها كان يلومها أحياناً حين يراها منهمكة في كتابة الشعر لساعات طويلة.

وفي سمرقند قيل لنا: إنه لا توجد طائرة تحملنا منها إلى بخارى، وأن علينا أن نذهب إلى طشقند أولاً، ثم منها إلى بخارى. فاستقر رأي الهنود وغيرهم على عدم الذهاب إلى بخارى والسفر إلى موسكو، فأسفنا أشد الأسف؛ لرغبتي الشديدة في زيارة هذه المدينة القديمة.

وبتنا ليلة في طشقند بعد أن قطعنا المسافة بينها وبين سمرقند في ساعة بالضبط، ومن العجيب الذي يستحق أن يذكر أننا برحنا سمرقند في تمام الساعة السابعة والنصف، وقد وصلنا طشقند أيضاً في السابعة والنصف، وذلك بالطبع لفرق الوقت بينهما.

وتحدثت في الطريق مع الكاتب الهندي المعروف ملا راج أناند طويلاً وهو غزير العلم والمعرفة، ولا عيب فيه إلا أن نطقه الإنجليزية رديء جداً ومن الصعب على مخاطبه متابعته في الحديث.



Ali Ahmed Bakathir

Ali Ahmed Bakathir levele a szerzőhöz

صورة باكثير وإهدائها نشرها المستشرق المجري المسلم عبدالكريم جرمانوس (١٨٨٤-١٩٧٩م) في كتابه (الأدب العربي) عن ذكرياته مع أدباء مصر.

في موسكــــــو

وفي صباح اليوم التالي حملتنا الطائرة النفاثة الجت مرة أخرى إلى موسكو لارأسا كما جئنا من موسكو إلى طشقند من قبل، بل عن طريق تفليس عاصمة جمهورية جورجيا. وقد علت الطائرة ونحن نجتاز جبال القوقاز العالية حتى تجاوز علوها أحد عشر ألف متر، وشعرنا برهبة حين نظرنا من النافذة الزجاجية فرأينا طائرتنا فوق السحاب، ومع ذلك فقد رأينا في أقصى الأفق تلك الجبال الهائلة كأنها أعلى من طائرتنا،وقد شعرنا بشيء خفيف من ضيق النفس كان له أثر سيئ بعد ذلك على نشاطنا.

وهبطت الطائرة بمطار تفليس، وكانت جورجيا تحتفل منذ أيام بمرور ألف وخمسمائة سنة على تأسيس مدينة تفليس (تبليس)، وقد حضر الاحتفال بعض زملائنا من أعضاء الوفد، وتمنينا لو أمكننا زيارة المدينة، ولكن الوقت كان أضيق من أن يسمح بذلك خاصة أن المدينة تبعد عن المطار ثمانية عشر كيلو متراً، فمكثنا في المطار ساعة ونصف ساعة، ثم عاودنا السفر، فوصلنا موسكو في الساعة الثالثة والربع بتوقيت طشقند أي الساعة الثانية عشرة والربع وقد بدت لنا رائعة من الجو، ونزلنا في فندق لينين غراد وهو فندق جديد، ولكنه بُني على الطراز الروسي، فبدا كأنه قديم، وهو فندق جميل وخدمته في الطعام ممتازة.

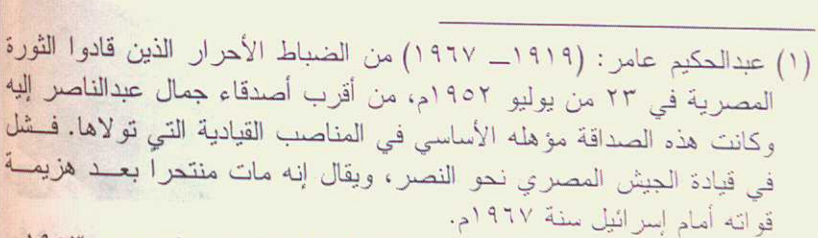
وفي الساعة السابعة مساء ذهبنا لتلبية دعوة وجهت إلى جميع أعضاء الوفود الذين شهدوا مؤتمر طشقند من قبل اتحاد الكتاب السوفيات في قاعدة تشايكوفسكي، وهناك بين الوفود المتزاحمة التقينا بقية أعضاء وفدنا الذين تفرقوا بعد المؤتمر في طشقند، فمنهم من ذهب إلى جورجيا ومنهم من رجع إلى موسكو فأقام بها، ومنهم من ذهب إلى بلغراد.



موسكو يتوسطها الكرملين كما بدت لنا الجو

وبعد أن أُلقيت الكلمات في هذه الحفلة عن أثر مؤتمر طشقند... الخ، من قبل الوفود ومن قبل الأدباء الروس، أقيمت حفلة متنوعة في القاعة، فشهدنا عجباً من التلاميذ الصغار والتلميذات الصغيرات من فرقة الطليعة يعزفون على الآلات الموسيقيّة كأنهم فنانون محترفون، ومنهم جماعات تنشد وتغني وجماعات ترقص، وكانوا في أعمار متفاوتة، فكان قائد الأوركسترا وهو رجل كهل يؤلف بين أصوات هذه المجموعات، وأداء هؤلاء الأطفال، هو أجمل ما في الحفل.

وفي الليلة التالية أقامت السفارة المصرية حفلة استقبال بمناسبة حضور الفريق عبد الحكيم عامر[1] صديق جمال عبدالناصر الحميم ومبعوثه إلى موسكو، ولذلك حرص الزعيم الشيوعي المسيو خروشوف[2] على حضور هذه الحفلة مع عدد كبير من الدبلوماسيين الروس، ولكني لم أحضر هذه الحفلة، إذ لم تبلغني الدعوة إلا بعد انقضائها، وذلك لأننا نزلنا في فندق شقراء بينما نزل بقية أعضاء الوفد في فندق أوكرانيا، وبين الفندقين مسافة كبيرة فلم نتمكن من التلاقي إلا بصعوبة.


(١) عبدالحكيم عامر: (١٩١٩ـ ١٩٦٧) من الضباط الأحرار الذين قادوا الثورة المصرية في ٢٣ من يوليو ١٩٥٢م، من أقرب أصدقاء جمال عبدالناصر إليه وكانت هذه الصداقة مؤهله الأساسي في المناصب القيادية التي تولاها. فشل في قيادة الجيش المصري نحو النصر، ويقال إنه مات منتحرا بعد هزيمة قواته أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧م.

(٢) خروشوف: (١٨٩٤ـ ١٩٧١) حكم الاتحاد السوفيتي في الفترة من ١٩٥٣ - ١٩٦٤م قضى فيها على آثار ستالين وحارب فكرة عبادة الفرد.


عبدالحكيم عامر مع جمال عبدالناصر في لقطة مُعبِّرَة

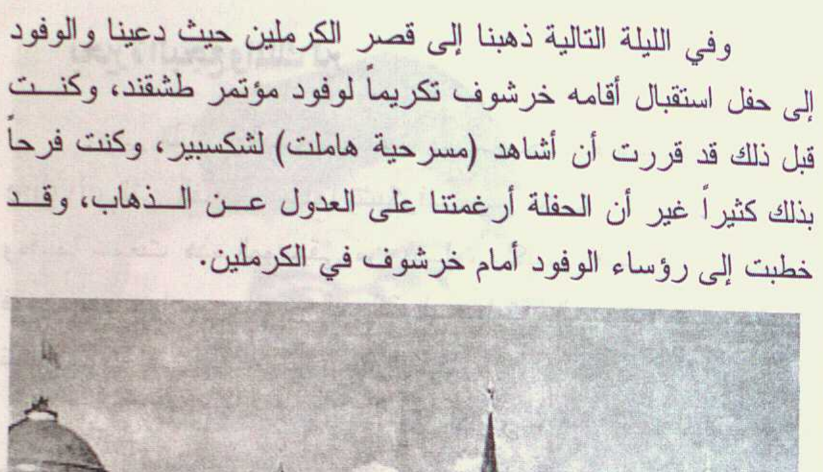
أوبرا من قرغيزيا:

وذهبنا في تلك الليلة إلى مسرح ستانسلافسكي لحضور أوبرا قرغيزيا، أي من عمل فناني جمهورية قرغيزية من الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي، وقد أعجبتني الأوبرا على وجه الإجمال، ولاسيما الموسيقى والديكور والإخراج، أما القصة فبطلها رجل يدعى تولتورين (toltoryn) كان شاعراً وخصمه رجل من الإقطاعيين، حاول أن يكتب فلم يفلح، إذ أصر على مهاجمة مَنْ ظلمه، فدبر له حيلة فقبض

عليه وألقاه في السجن، وفي السجن، حرّض المسجونين على الثورة فثاروا وانتهت الأوبرا بخلاصهم عند بدء الثورة الروسية، وقد لفت نظري أن النساء في قرغيزيا يلبسن عمائم كبيرة جداً كأنها قبب موضوعة على رؤوسهن، ولعل هذا الزي هو الزي القديم للقرغيزيات، ولا أدري هل بقي هذا الزي حتى الآن أم بطل؟

وأجمل ما في هذه الأوبرا المنظر الأخير فيها فهو آية في الإبداع لم أر له مثيلاً من قبل، فقد رفعت الستارة عن سهول سيبيريا بما فيها من أشجار، ومنارها تدور على المسرح حتى كأنك ترى سهول سيبيريا حقيقة لأن المشاهد تتغير في كل لحظة، فيبدو قسم من أقسامها، كل ذلك في حركتين سريعتين إحداهما من اليمين إلى اليسار والأخرى من اليسار إلى اليمين حتى تنتهي المشاهد بمنظر السجن وكان الانتقال منها إليه يفوق حد الرؤى.

ويتم ذلك في مسرح لعرض فنون وآداب جمهورية قرغيزيا جريا على العادة الفنية المتبعة في الاتحاد السوفياتي، حيث يخصص لكل جمهورية موسم خاص في العام أو أكثر تعرض فيه أحسن نتاجها الفني في عاصمة الاتحاد، وقد بلغني أنهم في العام القادم ١٩٥٩م سيتخذون بدلاً من هذه العادة أن تعرض الجمهورية أحسن نتاجها في عاصمتها الخاصة، وتدعو الناس من سائر الجمهوريات لمشاهدتها، ويظهر أن الهدف من ذلك ألا تتعطل المسارح في موسكو مدة من الزمن.



وفي الليلة التالية ذهبنا إلى قصر الكرملين حيث دعينا والوفود إلى حفل استقبال أقامه خرشوف تكريماً لوفود مؤتمر طشقند، وكنت قبل ذلك قد قررت أن أشاهد (مسرحية هاملت) لشكسبير، وكنت فرحاً بذلك كثيراً غير أن الحفلة أرغمتنا على العدول عن الذهاب، وقد خطبت إلى رؤساء الوفود أمام خرشوف في الكرملين.



ذهبنا إلى قصر الكرملين حيث دعينا إلى حفل استقبال أقامه خرشوف

بحيرة البجع والملك لير

وفي الليلة التالية شاهدنا باليه بحيرة البجع jac aux ciygne التي ألف موسيقاها تشيكوفيسكي فكان التمثيل رائعاً، وطالما سمعت هذه الموسيقى من قبل، ولكني في هذه المرة فهمت مراميها عن طريق الحركة الصامتة بالجسد، فقد كانت تلك الحركة هي المفسر لها تفسيراً دقيقاً.

وفي الليلة التالية يوم ٢٤ من أكتوبر ١٩٥٨م ذهبنا لمشاهدة مسرحية (الملك لير) لشكسبير في مسرح بلدية موسكو، وكان ممثل الدور الأول رائعاً جداً وصورته لا يمكن أن تبرح الذهن أبداً بلحيته السابغة البيضاء ورأسه الكبير وعينيه الواسعتين والطيبة والسذاجة الباديتين في أساريره، ثم التنهدات العميقة عمق البحر، بعد أن تبين عاقبة عمله الساذج، وكذلك الشاب الذي قبل دور المهرج، أما الممثلون والممثلات الآخرون فتمثيلهم لا يلفت النظر كثيراً.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي ركبنا إلى مطار موسكو تصحبنا فتاة مثقفة في الفرنسية وأدبها تدعى إنا سفيبشيفا، وفي المطار اعترضتنا عقبة إذ جاوزت حاجاتنا ٣٠ كليو جراماً فطالبونا بدفع مبلغ مائتي روبل على الزيادة، وأطلعناهم على التذكرة الخاصة بالزيارة التي عندنا فقالوا: إنها لا تجدي لأن الشركة لم تعتمدها في موسكو وأخيراً اضطر اتحاد الكتاب إلى دفع المبلغ عني وعن زميلي الأستاذ خليل الهنداوي.



ركبنا إلى مطار موسكو تصحبنا فتاة مثقفة في الفرنسية

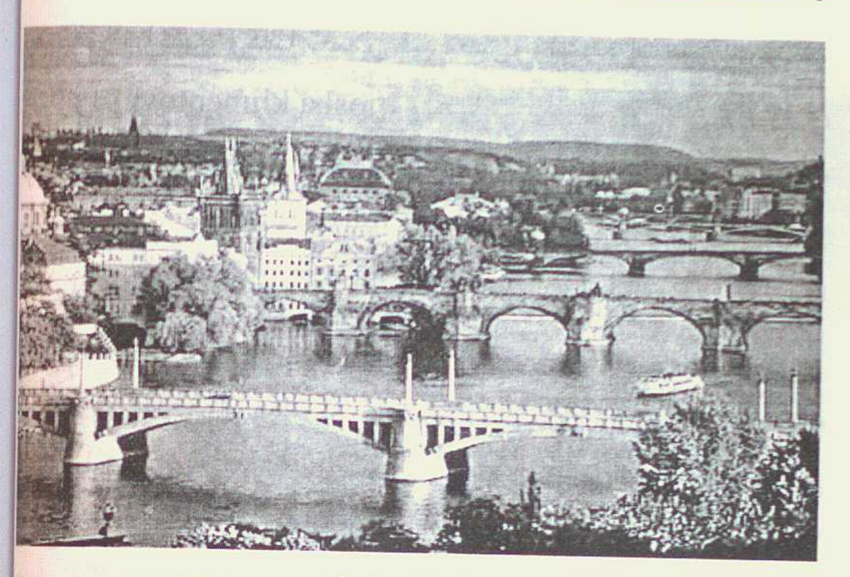
يومان في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا

واستقللنا الطائرة من طراز (تو ١٠٤) فوصلنا براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا بعد ساعتين. وفي براغ قيل لي: إنني لا أستطيع أن أذهب إلى فيينا في النمسا إلا بعد يومين. كما أخبروني أن عليّ أن أدفع نفقات الإقامة على حسابي فنزلت في (فندق إنترناشيونال) وهو يقع في أطراف المدينة مما يلي المطار يشرف على المزارع، ومن خلفها رابية خضراء تزينها المباني البيضاء منتشرة هنا وهناك، والخدمة في الفندق لا بأس بها ولكن أجر المبيت وحده مرتفع فهو ٥٣ كورونا أي ما يقرب من جنيهين مصريين لأنهم صرفوا لنا الجنيه المصري بثمانية وعشرين كورونا مثل الروبل، ثم علمت من بعض الطلبة المصريين الذين صادفتهم هناك أنهم مستعدون أن يعطوني ٤٠كورونا عن الجنيه الواحد: وبعد أن استرحنا قليلاً وتعشينا ركبنا الترام إلى المدينة فوصلناها في حوالي نصف ساعة في طريق دائري يدور حول المدينة.

وكان من حسن حظنا أن تعرفنا بطريق الصدفة في الترام بسيدة كبيرة السن تطوعت لخدمتنا وإرشادنا وتفريجنا على معالم المدينة، وعلمنا منها أنها كانت في مصر إلى سنة ١٩٢٩م، حيث اشتغلت فنانة تغني مع أخت لها جميلة جداً تدعى آدنى أرتنا صورتها

مع صورة أختها، وكانتا تعملان في مصر، والسيدة اسمها جوسكا كلمينتوا (joska klimentova)، ولكنها تدعى باسمها الفني جيوري دي تيرو (jemory de terro) وهي تهتم على الدوام بذكر مصر، وتتحدث بحنين واشتياق عن الأيام التي قضتها في ربوع وادي النيل، حتى لتكاد الدموع تطفر من عينيها، بل إنها لتحدثنا عن عشاقها من المصريين ولاسيما رجل مليونير يقال له علي عبد القادر شريف من أهالي إسكندرية. وحدثتني أن الأمير فؤاد (الملك فؤاد)[1] كان يجري وراءها، وهي الآن متزوجة من مهندس في براغ، وقد استأذنت حين لقيناها لأول مرة أن تذهب إلى بيتها لتخبر زوجها أنها ستمضي الأمسية معنا لتفرجنا على براغ، وسألتنا أن ننتظرها في محطة الترام فانتظرناها، وأشفقنا أن تكون أخلفت الموعد، وهممنا بالذهاب خشية أن يضيع الوقت في الانتظار إلا أنها أقبلت تُغذ السير كأنها فتاة شابة، وبعد أن تجولنا في شوارع المدينة جلسنا في مقهى فاحتسينا القهوة التركية اللذيذة التي لم نذق مثلها منذ فارقنا الوطن. وفي هذا المقهى عثرنا على الطالبيْن المصريين: فتحي شريف، وعبد الحكيم عبد العزيز القطان فكان سرورنا عظيماً.

(١) الملك فؤاد الأول: (١٨٦٨ـ ١٩٣٦) حكم مصر في الفترة من ١٩٢٢م إلى ١٩٣٦م وخلفه الملك فاروق في الحكم.



وصلنا براغ فقيل لي: إنني لا أستطيع أن أذهب إلى فيينا إلا بعد يومين

على درج العشاق!

وفي اليوم التالي سافر الأستاذ خليل هنداوي إلى زيورخ، وبقيت يوماً آخر في براغ، وكنت على موعد من السيدة المشار إليها في الساعة الثالثة بعد الظهر فقضيت الصباح في التجول وحدي في المدينة وفي شراء بعض الحلي الصناعية، وكان يرافقني شابان من التشيك أحدهما يعرف قليلاً من الإنجليزية، وحضرت السيدة في الساعة الثالثة ففرجتني على براغ القديمة. والواقع أن المدينة القديمة تستحق المشاهدة، فهناك القصر الهائل الواقع على ربوة تشرف على المدينة كلها وحولها الكنائس الفخمة ذات النقوش الأنيقة وهي كثيرة،

ثم نزلنا في دَرَج تاريخي عتيق يقال: إن العشاق كانوا يتلاقون على هذا الدرج، وطالما غنّى شعراؤهم بذكريات هذا الدرج إلى أن وصلنا مرة أخرى إلى وسط المدينة حيث جلسنا في مقهى نتحدث، وفي المقهى اتصلنا بصديقي الأستاذ هوفمايستر بالتليفون فدعاني لزيارته في منزله، فكانت السيدة العجوز هي التي أوصلتني إلى بيته مشيا على الأقدام.

وقابلني هوفمايستر بترحاب في مَرْسمه الذي يبدو كأنه مَعرِض أو مُتحف من الصور الكاريكاتورية وغيرها من التحف من مختلف بلاد العالم التي زارها، وأراني بعض التحف المصرية، كما أراني أيضاً نسخة لكتاب بعنوان من (قمة الأهرام)، واعتذر بأن أهل بيته في رحلة قصيرة وأنه هو وحده في البيت، وحاول أن يعمل لي قهوة فمنعته، وقلت له: إنني أريد أن أتحدث إليك لا أن أشرب القهوة وحدثني أنه حاضر كثيراً عن مصر وهو جوّال في البلاد لا يكاد يستقر، يقيم المعارض الفنية في كل بلد يزوره، وسألني عمن يعرف من المصريين مثل: يحيى حقي[1]، وفتحي رضوان[2]، ومكثت عنده حوالي ساعة.

---

(١) يحيى حقي: (١٩٠٥ ــ ١٩٩٢م) من أهم كتاب القصة القصيرة في مصر، تقلب في السلك الدبلوماسي المصري، ثم عين مديراً عاماً لمصلحة الفنون حيث كان باكثير ونجيب محفوظ من أهم موظفيها. رأس تحرير عدة مجلات.

(٢) فتحي رضوان: (١٩١١-١٩٨٨م) مفكر وسياسي وكاتب مسرحي وقصصي مصري، يعد من رجال الحركة الوطنية قبل الثورة المصرية، وبعد الثورة عين وزيراً للإرشاد القومي، وله أكثر من أربعين كتاباً.

إلى فينا عاصمة النمسا

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ركبت الطائرة إلى فيينا، وبعد أن أقلعت في الجو حوالي ساعة رجعت بنا إلى براغ لعطل أصابها فحمدنا الله على أن كفانا شر ما تخبئه الأيام، ولم يكن في الطائرة غيري وغير كندي من كوبك واثنان آخران. وهذا الكندي لطيف المعشر ولكنه مضحك في إعزازه للمال وفي نقد الاتحاد السوفياتي إذ كان قد زاره وهو في رحلة يطوف فيها حول العالم، وتبين أنه لا يعرف إندونيسيا ولا يعرف أن هناك أمة وبلداً يسمى إندونيسيا بالمرة، فعجبت لضحالة ثقافته، وهو يتكلم الإنجليزية والفرنسية ويلحن فيهما كثيراً إلا أنه طيب القلب ساذج، وقد ضحكت الفتاة الموكلة بالجوازات في المطار حين سمعته يحدثها عن مقدرته على الطواف حول العالم بفخر واعتزاز مضحكين.

ومما يدل على طيبته أنه لما استقبله صديق له في فيينا بمقتضى برقية أرسلها إليه أوصاه بي خيراً، وقال: هذا السيد رفيقي في السفر، ولكن الصديق لم يكترث كثيراً بوصيته بل اكتفى بأن قال لي: أوصيك أن تذهب إلى مكتب الشركة وتستفهم عن الفنادق التي تعجبك وسيخبرونك عنها وعن أسعارها فلم يستطع صاحبنا أن يصنع شيئا فودعته وانصرف مع صديقه.

سحر فيينا:

ما إن هبطت الطائرة أرض المطار، بل ما إن دنت الطائرة من المدينة ولاحت معالمها من الجو حتى شعرت بفيض من السرور يغمرني لا أدري ما سببه، فالحقول الخضراء المحيطة بها، ونهر الدانوب يلمع تحتنا كأنه حية بيضاء هائلة تتلوى من بعيد، وكما أنها جميلة فإن أهلها على خلق كريم جميل فلا تفتيش في المطار، ولا حتى سؤال عمّا في

الحقائب، بل أتموا الإجراءات اللازمة في سهولة ويُسر وسرعة، ثم جاءت سيارة الشركة الحافلة لتحملنا إلى المدينة. فصرفت خمسة جنيهات مصرية بمبلغ ٢٢٥ شلنا نمساوياً بواقع ٤٥ شلنا للجنيه الواحد، ولما ركبنا السيارة طلب منا السائق ١٥ شلنا ثمن إيصالنا إلى مقر الشركة الواقع قريبا من ميدان دار الأوبرا المشهورة التي تعتبر ـ بحق ـ سُرّة البلد، ونزلت بفندق قريب من سرة البلد ولكنه قديم عتيق، فأنزلوني في حجرة بها حوض لغسل الوجه بماء ساخن وماء بارد، ولكنها ليس بها حمّام، وكانت هذه أول مرة أقيم في حجرة ليس بها حمام غير أن جمال المدينة شغلني عن التفكير في هذا النقص.

وغسلت وجهي ثم خرجت إلى المدينة أتجول في شوارعها وأنا أتلفت يمنة ويسرة حتى لا يضيع مني الاتجاه، وكنت أنظر إلى اللافتات والمباني أتخذ منها علامة أهتدي بها عند العودة، وبينما أنا ماش في اتجاه معين إذ اعترضني الدرج الذي يخترق الميدان تحت الأرض وخرجت من أحد المخارج فإذا بي أضعت الاتجاه ولم أدر أي ناحية أيمم، ولما طال بي التعرف دون نتيجة اضطررت أن أسأل ضابط بوليس فدلني على الاتجاه الذي أضعته من قبل.

والمدينة حقا ساحرة فشوارعها كبيرة واسعة تكاد تتشابه أو تتماثل في جمالها ونظافتها ورشاقة مبانيها، ولم أر مدينة قط في مثل هذا التكامل العجيب.



ما إن دنت الطائرة ولاحت معالم فيينا من الجو
حتى شعرت بفيض من السرور يغمرني

رجال الملحقية الثقافية المصرية :

وفي اليوم الثاني بحثت عن عنوان الملحق الثقافي للجمهورية العربية المتحدة في فيينا، وكنت قد أخذت العنوان من الطالبين المصريين ببراغ، فاهتديت إليه بسهولة لأنه في نفس القسم (القسم الرابع) الذي يقع فيه فندقي، ففيينا تنقسم إلى أقسام تبلغ العشرين، وتلقاني في المكتب الأستاذ محمد علوي عبد الهادي، وهو شاب لطيف يقول: إنه لقيني وقد قدمني إلى السيد مدير المكتب الأستاذ محمد

عبد المنعم حافظ وهو من خريجي القسم الإنجليزي في كلية آداب القاهرة وقضى مدة في إنجلترا بعد ذلك، وهو يتكلم الإنجليزية بطلاقة وله معرفة طيبة بالأدب العربي، وقد استقبلني بترحاب وأنس، وبالغ في تقديري والحفاوة بي، وأعربت له عن رغبتي في زيارة معهد الدراسات الشرقية في المدينة بعد ما سمعت عنه من أحد الطلبة به وهو الأستاذ الذي لقيته في مكتب الأستاذمحمد علوي عبدالهادي، وهو شاب في حوالي الخامسة والعشرين كان قد تخرج فى كلية دار العلوم، وقدم إلى فيينا لتحضير الدكتوراه على نفقته الخاصة، ولكنه لم يعط إجازة دراسية بمرتب من وزارة التربية والتعليم إذ كان يشتغل مدرسا، وهو شاب جاد مجتهد في دراسته، وقد حدثني عن أستاذه الدكتور جوتشلك وما إن سمع الأستاذ محمد حافظ عبدالمنعم باقتراحي حتى بادر بدعوة الآنسة السكرتيرة وكلفها بالاتصال حالاً بالدكتور جوتشلك الذي رحب بزيارتنا وحدد الساعة الثالثة موعداً للمقابلة في المعهد نفسه، فما كان من الأستاذ حافظ إلا أن دعاني لتناول الغداء معه، ثم يرافقني إلى المعهد، فتركته وذهبت في عجل إلى الفندق حيث أحضرت معي ما بقي من نسخ كتبي أي رواية (وا إسلاماه) والمحاضرات عن (فن المسرحية من خلال تجاري الشخصية) ونسخة من القرآن الكريم لأهديها إلى الدكتور جوتشلك، أما الأستاذ حافظ فقد أهديته أيضاً مصحفاً وحُقّا من موسكو ففرح بهديتي ووضع الحق على مكتبه كتذكار وفرح بصفة خاصة بالمصحف وقال إنه نسي أن يأخذ مصحفاً معه حين سافر من مصر، وقد تناولت الغداء في أحد الفنادق الفخمة في فيينا، وهو فندق برستول في ميدان الأوبرا.

والأستاذ حافظ رجل كامل في علمه وسلوكه، ويمتاز بأخلاق عالية وبالاهتمام الشديد بشؤون الطلبة العرب في المدينة، وفي الجلسة التي حضرتها في مكتبه لاحظت أنه كتب إلى وزير التربية والتعليم كتابين أحدهما يتعلق باستقدام الدكتور جوتشلك ليلقي بعض المحاضرات في جامعة القاهرة، والثاني خاص بترشيحه ليكون عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية وهو محبوب جداً من الطلبة.



في المساء اشتركت في رحلة حول المدينة
ويدعى هذا البرنامج باسم (فيينا في الليل)

في معهد الدراسات الشرقية :

ولقينا الدكتور جوتشلك في المعهد وتحدثنا معه عن أمور شتى في الأدب القديم، ولقد لاحظت أنه متمكن من اللغة والنحو العربيين، وقرأت مجمل تاريخ حياته العلمية فإذا هو ضليع في التاريخ الإسلامي أيضاً، ولاسيما تاريخ الأيوبيين والمماليك، وله كتب في ذلك. وقد جر الحديث إلى ذكر الدكتور بشر فارس[1] فأثنى على معرفته بتصحيح الكتب القديمة ومعرفته بطبيعاتها المختلفة، وقال: إنه من أحد الأفذاذ في ذلك وعيبه الوحيد أنه لم يقتصر على هذا الفن، بل أراد أن يكون كاتباً أديباً وما أحسبه نجح في ذلك.

واستطرد بحديثنا عن محاولاته لإخراج مسرحياته في مسارح فيينا حتى إنه كلف أحد الكتاب بترجمة بعضها إلى الألمانية تمهيداً لذلك، وإنه لم يبخل على ذلك الكاتب في الأجر، وكلف الدكتور جوتشلك بالسعي لدى مدير المسارح حتى نجح في جعل مسرحية تخرج في أحد المسارح المتواضعة في فيينا، ولكنه كان شديد الطموح فأراد أن تخرج له مسرحية في المسرح القومي (مسرح الدولة)، وأخذ الدكتور يذكر على سبيل النقد غروره وطمعه فيما لا سبيل إليه، ولكنه قال إنه عرض مسرحية مترجمة إلى الألمانية على مدير ذلك المسرح فكان الجواب الرفض. ثم استطرد يذكر أن الوزير المصري المفوض

(١) بشر فارس: (١٩٠٧ـ ١٩٦٣م) أديب لبناني ولد وعاش حياته كلها في مصر، تخرج من جامعة السوربون في باريس، له عدة أبحاث بالفرنسية، وأصدر بالعربية عدة مسرحيات واهتم بدراسة التصوير العربي الإسلامي.

السابق الأستاذ حسن فهمي كان يكره الدكتور بشرفارس، وقال: لعل ذلك ناتج عن أن الوزير كان صديقاً لتوفيق الحكيم[1] وكان يسعى إلى أن تمثل لتوفيق الحكيم مسرحية في فيينا غير أنه لم ينجح في مسعاه، وفرّجنا الدكتور على المعهد وأقسامه ولقينا هناك بعض الطلبة العرب وبينهم آنسة تدعى انشراح العمري قيل لي: إنها تدرس الموسيقى في فيينا، وقد سلمت علي وزعمت أنها كانت تقرأ لي، وسألتني إن كان معي كتاب لتقرأه فاعتذرت لها ووعدتها بإرسال بعض الكتب إليها.

ثم قدمني الدكتور جوتشلك إلى بقية أساتذة المعهد وإلى عميده أيضاً، ولهذا العميد ابنة تدرس في جامعة القاهرة أظنها تدرس الفن الإسلامي.

وسألت الدكتور جوتشلك هل توجد لديه كتب من الأدب المصري الحديث؟ فأجاب بالنفي، ورجاني أن أعمل على أن ترسل إليه عدد من الكتب فوعدته خيراً، وينبغي أن أحث المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن يحقق هذه الرغبة، والواقع أن وجود كتب مصرية في هذا المعهد مما ينوّر حركة اللغة العربية فيها.

(١) توفيق الحكيم: (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧م) أشهر كتّاب المسرح العربي، من أعماله:(أهل الكهف) و(عودة الروح) و(تحت شمس الفكر الفكر) و(عصفور من الشرق) و(سجن العمر) و(قالبنا المسرحي) و(محمدﷺ). وختم حياته بإصدار (مختصر تفسير القرطبي).

الإمبراطور الزاهد:

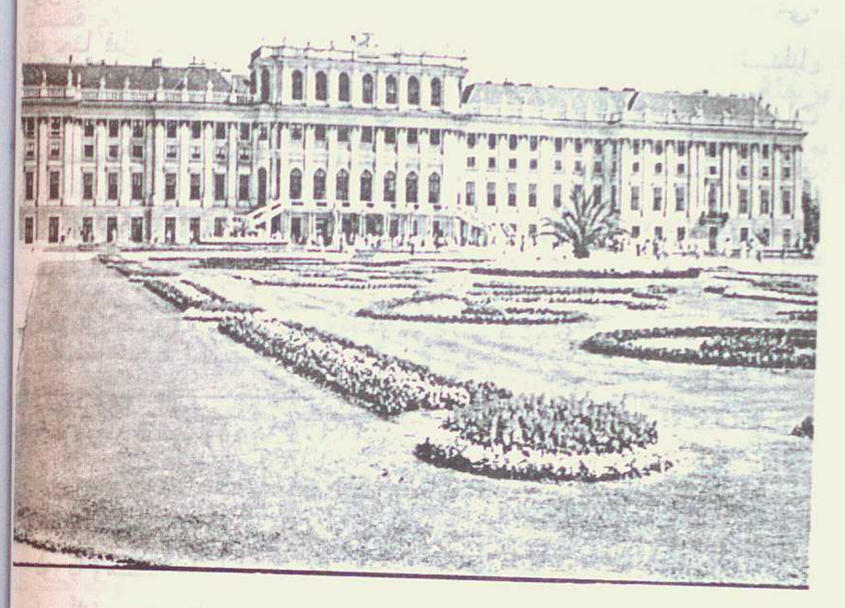
وفي اليوم التالي الأربعاء ٢٩ من أكتوبر ١٩٥٨م قمت برحلة حول المدينة عبر الأوتوبيس الذي يسمى أوستروبيس بواسطة شركة خاصة بالرحلات في فيينا، وقد تجولت بنا السيارة في أنحاء المدينة وكان الدليل يشرح لنا ما نراه بلغات مختلفة على حسب الأعضاء الموجودين في السيارة، وانتهت الرحلة بزيارة القصر المشهور وهو قصر بناه والد الإمبراطورة ماريا تريزا[1] وهو قصر كبير جداً فيه ما يربو على ألف حجرة. وتجولنا في القصر وشاهدنا الحجرات

(١) ماريا تيريزا: (١٧١٧ـ ١٧٨٠م) ملكة بوهيمياً (١٧٤٠ــ ١٧٨٠م) الابنة الوحيدة للإمبراطور شارك. جابهت عند اعتلائها العرش حلفاً أوروبياً، واستولى فريدريك ملك بروسيا على سيليزيا، مما أدى إلى نشوب حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ـ ١٧٤٨م) وانتهت باستيلاء بروسيا على معظم سيليزيا. وحصلت على انتخاب زوجها إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ١٧٤٥م. اندلعت حرب السنين السبع (١٧٥٦ـ ١٧٦٣م) التي أنهكت قوى النمسا، ولم تفقد ماريا تيريزا أرضا في هذه الحرب، ولكنها فقدت زعامة النمسا للدويلات الألمانية. أشركت ابنها جوزيف (خلف أباه في لقب الإمبراطور سنة ١٧٦٥م) معها في حكم ممتلكاتها. كانت قوية الشخصية، وأحبها شعبها لاهتمامها بشؤونه، وإدخالها سلسلة من الإصلاحات الزراعية والضرائبية، ولكنها كانت محافظة النزعة، كاثوليكية شديدة الورع، وزوجة مثالية. (أنجبت ١٦ طفلاً). كان بلاطها أنقى بلاط في أوروبا خلقاً وأدباً. وصارت فيينا أبان حكمها مركزاً للفنون والموسيقى. وظفر جلوك وموتسارت. ومن أطفالها مارى كاولين التي أصبحت ملكة نابولي، ومارى انطوانيت التي صارت ملكة فرنسا.

المختلفة بصورها ومتاعها من مخلفات ملوك النمسا، وتوجد طرز مختلفة في هذه الحجرات وبعضها على الطراز الصيني، وتفرجنا قبل ذلك على مقبرة العائلة الإمبراطورية فكان الدليل يشرح لنا الصور التي أمامنا في القصر وأصحاب أو صاحبات هذه الصور، وقد أفادنا بأن الملك جوزيف الثاني[1] آخر ملوك النمسا الذي حكم ستين عاماً[2] كان متواضعاً جداً وزاهداً ومتدينا اقتصر من القصر على أربع حجر فقط لسكنه ولاستقبال ضيوفه وترك الحجر الأخرى لا يستعملها.

(١) جوزيف الثاني (١٧٤١ـ ١٧٩٠م): إمبراطور وملك بوهيميا وهنغاريا، وهو ابن ماريا تيريزا. اشترك في حكم ممتلكات آل هابسبرج مع أمه من ١٧٦٥م حتى وفاتها ١٧٨٠م، وخلف أباه بوصفه إمبراطورا ١٧٦٥م. كان مصلحاً ثورياً ومستبدا ولكن تعجله ونفاد صبره قللا من فائدة كثير من أعماله وخدماته في أثناء حياته، لم يفلح في تحقيق هدفه الخاص بإلغاء الامتيازات الوراثية والكهنوتية للنبلاء وكبار رجال الكنيسة، ولكنه ألغى نظام موالي الأرض والمكوس الإقطاعية على الفلاحين التعساء، ومكنهم من شراء الأرض بثمن رخيص ومنح رعاياه قسطاً كبيراً من التسامح الديني. وفي سنة ١٧٨١م، ألغى التعذيب في التحقيقات القضائية، وجعل قانون العقوبات يتسم بالإنسانية، وأنشأ درجتين في استئناف الأحكام القضائية. اتخذ تدابير وإجراءات غير محبوبة لدى الكهنوت فحظر على الطوائف الدينية إطاعة القواد الأجانب، وأغلق دور الطوائف المذهبية التي تقضى وقتها في التأمل، ولم يثنه عن إصلاحاته الدينية زيارة البابا بيوس السادس له. أخفقت مشروعاته في فرض ضريبة واحدة على الأرض وتقديم الطعام والعلاج مجاناً للمعدمين.

(٢) الصحيح أنه حكم خمسة وعشرين عاماً.

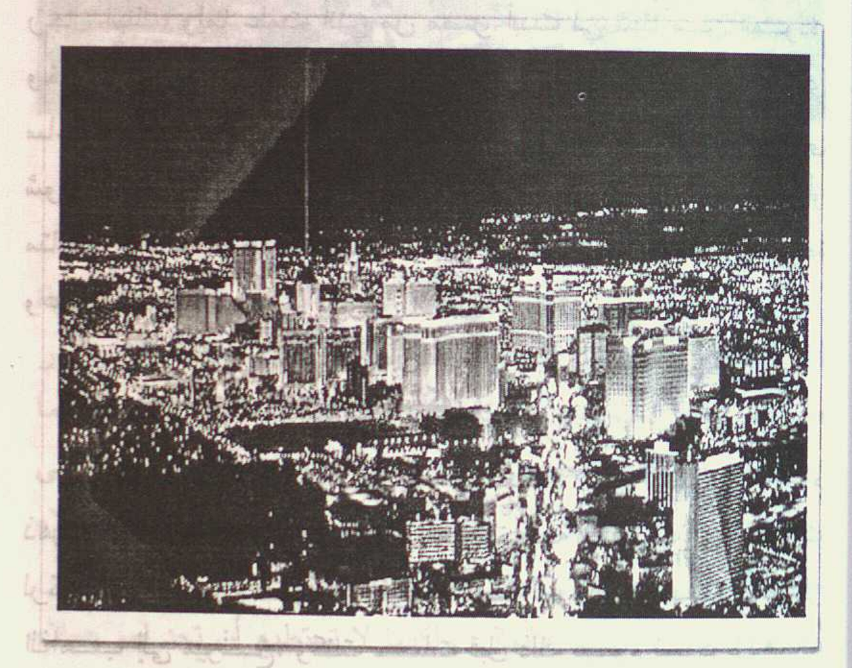


تجولنا في القصر وشاهدنا الحجرات المختلفة بمتاعها
من مخلفات ملوك النمسا

فيينا في الليل

وفي المساء من اليوم نفسه اشتركت في رحلة أخرى حول المدينة ويدعى هذا البرنامج باسم (فيينا في الليل) وكانت رحلة جد ممتعة إذ طفنا طوفة سريعة بمدينة فيينا بالليل، ثم ذهبنا إلى تلك الأرجوحة الدائرية المتلألئة بالنور ليلاً حتى ركبنا إحدى عرباتها فدارت العجلة فإذا نحن نرتفع.

يتبقى دعوة الدكتور شوماخر إلى مصر لإلقاء محاضرات عن بريخت لأنه متخصص في دراسته وفي الدراما الأمريكية على العموم، وكان يلقي المحاضرات بالفرنسية التي لا يجيدها تماماً ولكنه يستطيع إلقاءها. كما أنه سيكتب كتاباً عن مصر إذا أقام فيها مدة، وسيكون الكتاب مفيداً لدعاية مصر، كما كتب من قبل كتاباً عن الصين إذ زارها في ١٩٥٦م وهذا الكتاب تم إهداؤه لي، وقد طلبت منه أن يكتب مجملاً عن تاريخ حياته العلمية.



تجولت بنا السيارة في أنحاء فيينا
وكان الدليل يشرح لنا ما نراه بلغات مختلفة

جولة في ميونخ

في يوم الخميس ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٨م قررت الذهاب إلى ميونخ لرؤية الدكتور شوماخر، ولنتفرج على الحقول والغابات التي تفصل بين المدينتين، ولرغبتي في زيارة مدينة ألمانية حُصلت على تذكرة ذهاب وإياب بثلاثمائة شلن. وبعد ظهر هذا اليوم بينما كنت أصرف نقودي في البنك تعرفت بفتاة طيبة ساعدتني في التحدث إلى رجال البنك، ولما علمت أنني من مصر أبدت لي شيئاً من المودة، وخرجنا من البنك معاً، وتجولنا في المدينة وهي تقول لي: عندي ساعة من الوقت أستطيع أن أمضيها معك إذا شئت لأفرجك على شوارع المدينة، وقالت لي: إذا كنت ترغب في زيارة معالمها أو متاحفها فأنا مستعدة لمصاحبتك، وتبين لي أنها تحب الأدب والقراءة وعلى إطلاع واسع على الشؤون الأدبية.

أمريكية تتمنى وإنجليزية تشكو!

وفي صباح اليوم التالي يوم الجمعة ٣١ من أكتوبر ١٩٠٨م ذهبت إلى محطة القطارات في الساعة الخامسة والنصف، واضطررت لركوب عربة أجرة خشية أن يفوتني القطار، وهناك ركبت القطار الذاهب إلى ميونخ، وكنت حصلت قبل ذلك بيوم تذكرة ذهاب وإياب بمبلغ ثلاثمائة شلن. وفي القطار جلست بين سيدة إنجليزية



تجولنا في ميونخ وهي تقول لي:
عندي ساعة أن أمضيها معك لأفرجك على شوارعها

وفتاة أمريكية، وتحدثت إليهما في كثير من الشؤون، أما الفتاة الأمريكية فهي تعمل في السفارة الأمريكية بفيينا، وتريد أن تزور بعض أقاربها في ميونخ وهي تأمل أن تنقل يوما ما إلى القاهرة، وأما السيدة الإنجليزية فهي تعمل لحساب جمعية من جمعيات البر تعنى بمساعدة اللاجئين المقيمين في الأكواخ في النمسا، وحدثتني عن هؤلاء المساكين، ومنهم جماعات هربوا من يوغسلافيا وألبانيا وغيرهما، وأن الحكومة النمساوية تعينهم بالمال، ولكنها لا تستطيع أن تجد لهم عملاً، ثم إن هنا مشكلة قلة المساكن. وهي سيدة فاضلة يعجب من يستمع لحديثها كيف تكون هي من الإنجليز! وحدثتني عن إنجلترا عجباً حين

سألتها عن مشكلة التعصب الجنسي ضد الملونين إذ قالت: إن ذلك من عمل الجيل الجديد الذي لم يتلق قسطاً من التربية، أما بقية الشعب البريطاني فإنه لا يشعر مثل هذا الشعور بل يعارضه، واستطردت تقول: إنهم في إنجلترا يشكون من السطحية في كل شيء: في التعليم، وفي الأدب، وفي الفن.

وصلت إلى ميونخ حوالي الساعة الواحدة، وكان أول عمل قمت به أن توقفت أمام لافتة إعلان تحمل أسماء الفنادق وتلفوناتها، وأيها يكون أقرب إليها، ولكنني لم أجد فندقا واحداً بسرير مفرد، فاضطررت أن أقيم في بنسيون تديره امرأة متزوجة وتقوم بالعمل فيه آنسة تدعى إليزابيث، ويقع البنسيون في شارع موزارت قريباً من ميدان جوته. وهكذا تجد الشوارع في هذه المدينة بأسماء كبار الكتاب والفنانين والموسيقيين فشارع ليسنج، وشارع شالمر، وشارع بتهوفن.. إلخ، ولم تجد صاحبة البنسيون حجرة بسرير مفرد، فأعطتني حجرة بسريرين على حساب حجرة بسرير واحد وكان الأجر تسعة ماركات في الليلة الواحدة مع فطور الصباح. ومع ارتفاع هذا السعر إلا أنه هو الجاري في ميونخ، على أنني أُعطيت في الواقع شقة بأكملها لا يشاركني فيها أحد ورزمة المفاتيح، معي مفتاح الباب الخارجي ومفتاح الشقة ومفتاح الحجرة وهي مجموعة في طوق واحد، وللمفاتيح أزرار شددته، وجعلت المفاتيح في الطوق الجلدي كأنه شنطة صغيرة من الجلد.

مع رجال الصحافة والمسرح:

واتصلت على الفور تليفونيا بالأستاذ الدكتور فيليب شوماخر الذي لقيته في ستالين أباد بطاجكستان، وأعطيته النسخة الفرنسية من كتاب (مأساة أوديب)، إذ أعرب لي عن رغبته في ترجمتها إلى الألمانية وهو صاحب جريدة مشهورة في ميونخ توزع حوالي عشرين ألف نسخة أو تزيد، تدعى Deulseke woche، وقد سمعت صوته في التليفون فما كاد يصدق أنني في ميونخ حقا، واعتذر ذلك الحين بأنه مشغول في جريدته وضرب لي موعداً في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ليلقاني في الفندق، فانتظرته في الموعد فإذا هو قد جاء ومعه اثنان من أصدقائه الصحفيين والكتاب، أحدهما يعمل في نفس الجريدة التي يتولى رئاسة تحريرها الدكتور شوماخر ويدعى الأستاذ فرانز بوتز، والثاني يتولى تحرير صحيفة أسبوعية تدعى (بانوراما) خاصة بالفنون والآداب ويدعى الأستاذ يورجن بكلمان، والأول يرأس تحرير الشؤون الخارجية لجريدة (ديتش واش) وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة أما الثاني فيحسن الإنجليزية فرحبت بهم في الفندق، وجلسنا نتحدث حوالي ثلاث ساعات وقصصت عليهم تلخيص (مأساة أوديب)، وكنت أتحدث إلى الأستاذ بوتز بالفرنسية فيترجمها لصاحبه بالألمانية، ووجدت الثلاثة على جانب كبير من الذكاء، فكانوا يتابعون القصة بشغف عظيم لم أجده في أحد من قبل وأعجبوا بها وقالوا كيف لم تمثل هذه المسرحية حتى الآن، وعرضوا علي أن أقابل ناشراً كبيراً في ميونخ للاتفاق معه بصددها، ثم أخذوا يتشاورون في

تنظيم برنامج لي في ميونخ، وكان أن اتفقنا على أن أشاهد (ماكبث) لشكسبير تلك الليلة مع السيدة بكلمان، زوجة الأستاذ بكلمان وأنها ستنتظرني على باب المسرح في شارع مكيمليان.

وفي اليوم التالي أنا مدعو إلى بيت الدكتور شوماخر في الساعة السابعة ونصف فأنتظره في الفندق فيأخذني معه إلى بيته.

سيدة مثقفة، وجولة مفيدة:

وفي الموعد المحدد: الساعة الثانية والربع كنت على باب المسرح المشار إليه ومعي عدد من جريدة (بانوراما) لتعرفني السيدة، كما أن بيدها هي أيضاً عدد من نفس الجريدة، وهي آية التعارف بيننا، فلم أشعر إلا بسيدة تقترب مني وبيدها الجريدة فسلمت علي، فإذا هي تعرف اسمي وهي سيدة في نحو الخامسة والعشرين نحيفة رشيقة القوام غير معنية كثيراً بهندامها، عليها أمارات الجد في شيء من اللطف والدماثة.

وبعد تبادل التحيات ذهبت لتحصل على تذاكر الدخول والناس أفواج يشترون أيضاً التذاكر فأعياها ذلك ولم تستطع أن تحصل على شيء بعد أن وقفنا حوالي ساعة في الانتظار وكذلك بقية الحاضرين، وأبدت أسفاً شديدا لهذه النتيجة إلا أنني طيبت خاطرها، وقلت لها: لا بأس سأراها في وقت آخر. ثم رأت أن تفرّجني على المدينة فتجولنا فيها نشاهد آثارها الفنية القديمة من كنائس وأحياء وغيرها، وتسلقنا برجاً عالياً في إحدى الكاتدرائيات، وكان البرج عالياً جداً حتى بلغت القمة فإذا المدينة كلها تحت أقدامنا.



صعدت البرج عالياً حتى بلغت القمة فإذا ميونخ كلها تحت أقدامنا

وقد هالني اتساعها مما لم أتمكن أن أشهد من قبل، وأخذت تشرح لي أحياء المدينة وتاريخها، وجلسنا على مقعد في القمة ثم نزلنا من البرج. وواصلنا تجوالنا في أحياء أخرى وفي محلات بيع التحف، ثم دعتني إلى مقهى فخم في أحد الأحياء الراقية فصعدنا السلم إليه لأنه في الطابق الثاني وجلست تحتسي القهوة، وقالت بكل بساطة، إنني جائعة لأنها لم تتمكن من تناول الغذاء، وسألتني إن كنت أريد أن أتناول شيئا فاعتذرت بأنني شبعان، وقد أبت إلا أن تدفع الحساب بنفسها، ثم واصلنا تجوالنا حتى بلغنا المسرح الكبير، وهو أحد

مسرحين قوميين حيث تمثل فيه مسرحية (فاوست) لجوته[1]، وحاولت كذلك أن تحصل لنا على تذاكر فأعجزها أيضاً، فما كان منها إلا أن قادتني إلى المقهى المشهور في ميونخ المسمى (هوف بروس هاوس)، وهناك تناولنا كذلك شيئا من الطعام وكان مكتظا بالناس وبه دكاكين لبيع السجائر والبطاقات وغيرها، ومكثنا هناك حتى الساعة العاشرة، فاستأذنت للقيام، وأوصلتني إلى الترام الذي يوصلني إلى ميدان جوته، وكان المطر يتساقط غزيراً في الطرق، فلم تبال بذلك، ولم تطمئن حتى ركبت الترام، وفي الأماكن التي جلسنا فيها تحدثنا كثيراً في شتى الأشياء، وحدثتني عن نفسها فإذا هي قد زارت الأردن وسورية مرتين بصفتها مراسلة لصحف عديدة في ميونخ، وقد كتبت فصولاً ضافية عن سياسة الأردن وعن ملكها الملك حسين[2] ووزرائها. واكتشفت أنها تعطف على القضية العربية صدقاً، وتدرك وجهة النظر العربية في المسائل المختلفة ولاسيما في مسألة إسرائيل.

---

(١) جوته: (١٧٤٨ـ ١٨٣٢م) أعظم شعراء الألمان، كاتب مسرحي ومفكر وفيلسوف، تعد مسرحيته (فاوست) من أشهر أعماله نشرت سنة ١٨١٩م له ديوان يسمى (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) متأثرا فيه بالقرآن الكريم، وأشيع بأنه شوهد يصلي ويقرأ القرآن ويصوم وأثر عنه قوله:«إن كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون»!

(٢) الملك حسين بن طلال (١٩٣٥-١٩٩٩م): سياسي محنك يُعد من دهاة القادة العرب في العصر الحديث. اعتلى العرش في الأردن سنة ١٩٥٢م. وكان شريكاً أساسياً في معظم الأحداث الكبرى التي شهدتها المنطقة العربية فيما يخص قضايا الحرب ومشروعات السلام مع إسرائيل منذ قيام الثورة المصرية حتى وفاته.

التسلط الأمريكي والمداهنة الألمانية:

ولما قلت لها على سبيل المجاملة: إننا نحن العرب نحب الألمان كثيراً من زمن قديم: قالت لي بصريح العبارة: «ولكن لا أكتمك أن الألمان مع الأسف الشديد لايبادلونكم هذه المودة اليوم فإن حكومتهم واقعة تحت سيطرة الحكومة الأمريكية، وهي تحرص على دولارات أمريكا. فالجرائد والصحف في ألمانيا كلها تناصر أعداء العرب وتشيع إرجافات وأكاذيب عن العرب»، ثم حدثتني عن الأمريكان وكيف أنهم أفسدوا ألمانيا، وعرضت علي أن تصحبني إلى أحد المقاهي الخاصة بهم، فرحبت بالعرض وزرنا مقهى تعرفه وتعرف صاحبه اليهودي من روسيا، فإذا المقهى خاص بالأمريكان في ملابس مدنية، وبينهم عدد من الفتيات الألمانيات قالت لي بكلمات عنهن: إنهن جميعاً من المومسات، وقد تأثرت كثيراً لتأثرها وأنا أشاهد تلك الزهرات الشابة مضطرة إلى مصانعة هؤلاء الأوباش الذين يختلفون في سلوكهم كل الاختلاف عن الألمان في مفاهيمهم، فهنا العربدة وبذيء القول والمغازلة العلنية، وهناك السكون والأدب والنظام. وكانت زيارة هذا المقهى وشرب القهوة فيه خاتمة المطاف، وقد استوضحتني كثيراً عن السياسة المصرية، فاجتهدت أن أعطيها فكرة صحيحة، وهي تقول: هذا هو الحق لا ما يذيعه أعداؤكم عنكم فيما تنشره الصحف الألمانية عندنا مع الأسف.

طلاب مصريون:

وفي صباح اليوم التالي يوم الأحد تجولت وحدي في المدينة أشاهد حوانيتها المليئة بالحوائج الجميلة. وكان تجوالي في ميدان كارلي، وهو أهم ما في المدينة، وبه المتاجر الفخمة، ومن سوء حظي أن هذا اليوم يوم عطلة تقفل فيه الحوانيت، وكذلك اليوم الذي قبله إذ صادف عيد الموتى عند المسيحيين.

وبهذه المناسبة فإن ميونخ مدينة كاثوليكية وأهلها معظمهم متدينون. وبينما أنا أتجول إذ أبصرت ثلاثة من الشبان عرفت أنهم من مصر، فبدأتهم بالسلام فسلموا علي باشتياق. ولما عرفوا اسمي زادت حفاوتهم بي لأنهم قرؤوا بعض أعمالي. ودعوني لشرب الشاي في بيتهم، فذهبت معهم حتى وصلنا إلى البيت الذي يحتلون فيه حجرة صغيرة فيها سريران، وهم عبد العزيز عجور، وكمال رضوان، وأسامة عبد الحميد الغزالي، وصنعوا لنا الشاي وقدموه مع الكعك، ثم أخذوا لي صورة معهم، قالوا: إنهم سيعتزون بها. وشرحوا أحوال المدينة وأحوال الشعب الألماني ونظرته إلى القضايا العربية تبعاً لسادتهم الأمريكان الذين يغدقون عليهم الدولارات. وفهمت منهم أنهم يقومون برسالة كبيرة في شرح وجهة النظر العربية لهم، واقتربت الساعة السابعة والنصف فأوصلوني إلى ميدان جوته مشياً على الأقدام وكنا نتحدث طول الطريق.

في بيت شوماخر:

وفي الساعة السابعة و٥٣ دقيقة وصل الدكتور شوماخر فأخذني معه في سيارته الخاصة، وعرفني في بيته بالسيدة زوجته وهي سيدة جميلة محترمة تميل إلى البدانة وتشبه ملامحها ملامح الإيطاليات. وأخذنا نتحدث أنا وزوجها فإذا هي تخرج ثم تعود وبيدها ألبوم صور لابنها الصغير الذي لم يزل في المهد، ثم أعطتني صورتين منها، وبقينا في بيت الدكتور شوماخر حتى منتصف الليل فأوصلني عائداً إلى الفندق.

وفي الصباح (يوم الاثنين) الذي قررت فيه السفر عائداً إلى فيينا كلمني بالتليفون الأستاذ بوزه، وقال: إنه يود لو أمكث يوماً آخر في ميونخ لأن الأستاذ رئيس دار النشر والطبع (لا أذكر اسمه الآن) قد وصل من رحلة طويلة هذا اليوم فهو في حاجة إلى الراحة، ولا يستطيع أن يعمل، فلو بقيت إلى الغد لأمكن تدبير مقابلة بيني وبينه، وقال: إنه سيبعث إليه نسخة الكتاب ليقرأها ولكني قدرت أنه لن يتمكن من إتمام قراءة الكتاب حتى لو بقيت إلى اليوم التالي، فقررت أن أرجع إلى فيينا وليكن لدى الناشر المذكور فترة طويلة كافية لقراءة الكتاب وتدبره، ويكون الاتصال والمكاتبة من القاهرة.

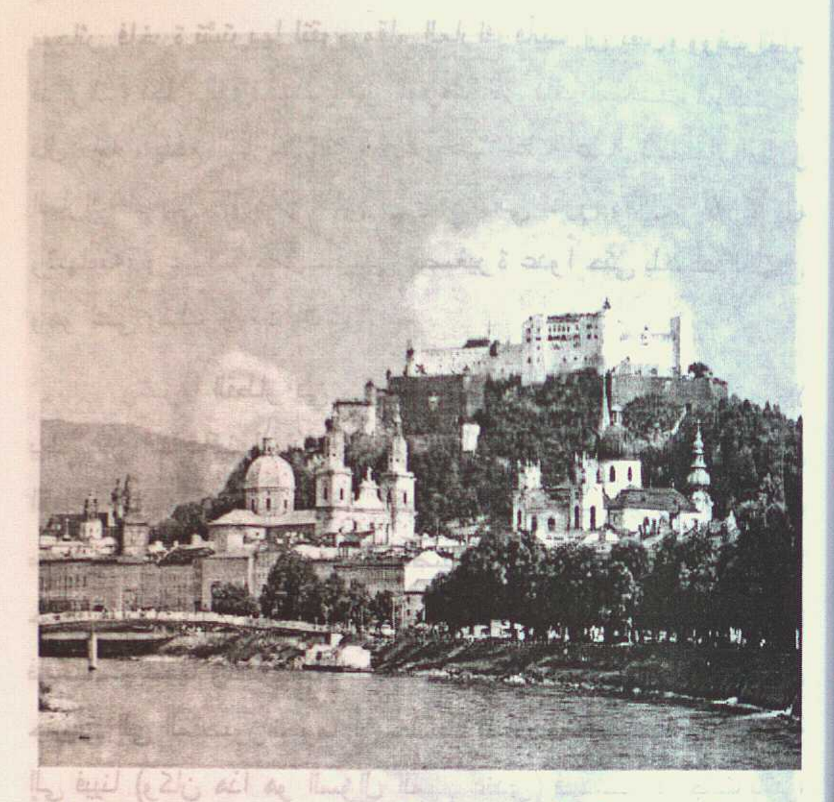
وكنت قد أوصيت السيدة بكلمان بكتابة مجملة عن تاريخ حياتها العلمية والثقافية لأعرضه على المسؤولين في القاهرة تمهيداً لتعيينها مدرسة للغة الألمانية بها، فحضرت السيدة إلى الفندق وجلسنا في بهو الاستقبال وطلبت لها قهوة، وسلمتني ما معها مما كتبته عن تاريخ حياتها باللغة

الإنجليزية على أن أطبعه على الآلة الكاتبة في القاهرة.

وتذكرت زهريات جميلة رخيصة في دكان بشارع ليوبولد القريب من شارع هولفزلرن فاقترحت على السيدة بكلمان أن تصحبني لشراء هذه الزهريات فوافقت بدون تردد، وكان المطر يتساقط بغزارة فركبنا الترام ثم اضطررنا إلى المشي مسافة طويلة تحت رذاذ المطر حتى بلغنا الدكان المشار إليه فاشتريت أربع زهريات صغيرة خفيفة الحمل وعند دفع الحساب أعوزني مبلغ صغير من النقود الألمانية (حوالي مارك ونصف) فدفعته السيدة عني وأنا أذوب حرجاً، ثم أعطتني أيضاً أجرة الترام من الفندق إلى المحطة عند سفري منها قبل أن أتمكن من صرف نقودي في بنك المحطة فشكرتها وأنا في غاية الحرج وشيعتني إلى منتصف الطريق إلى الفندق ثم ودعتني بتحية جميلة.

مأزق في القطار:

ووصلت إلى الفندق ولم يبق على قيام القطار غير ساعة واحدة، ومن حسن حظي وأنا خارج من الفندق أن حضر الدكتور شوماخر ليسلمني هو الآخر مجملاً عن تاريخ حياته العلمية والأدبية؛ لأنه هو الآخر يود لو يتمكن من الإقامة قليلاً في مصر، فيتمكن من الكتابة عنها كما فعل حين زار الصين الشعبية، فكتب عنها كتاباً كبيرا وأهداني نسخة منه. والواقع أنني أنا الذي اقترحت عليه ذلك فقبل الاقتراح بارتياح، وكانت معه سيارته فحملني فيها إلى المحطة، فصرفت النقود في البنك، وذهبت ألتمس الغداء، فتغديت في مطعم المحطة على عجل.

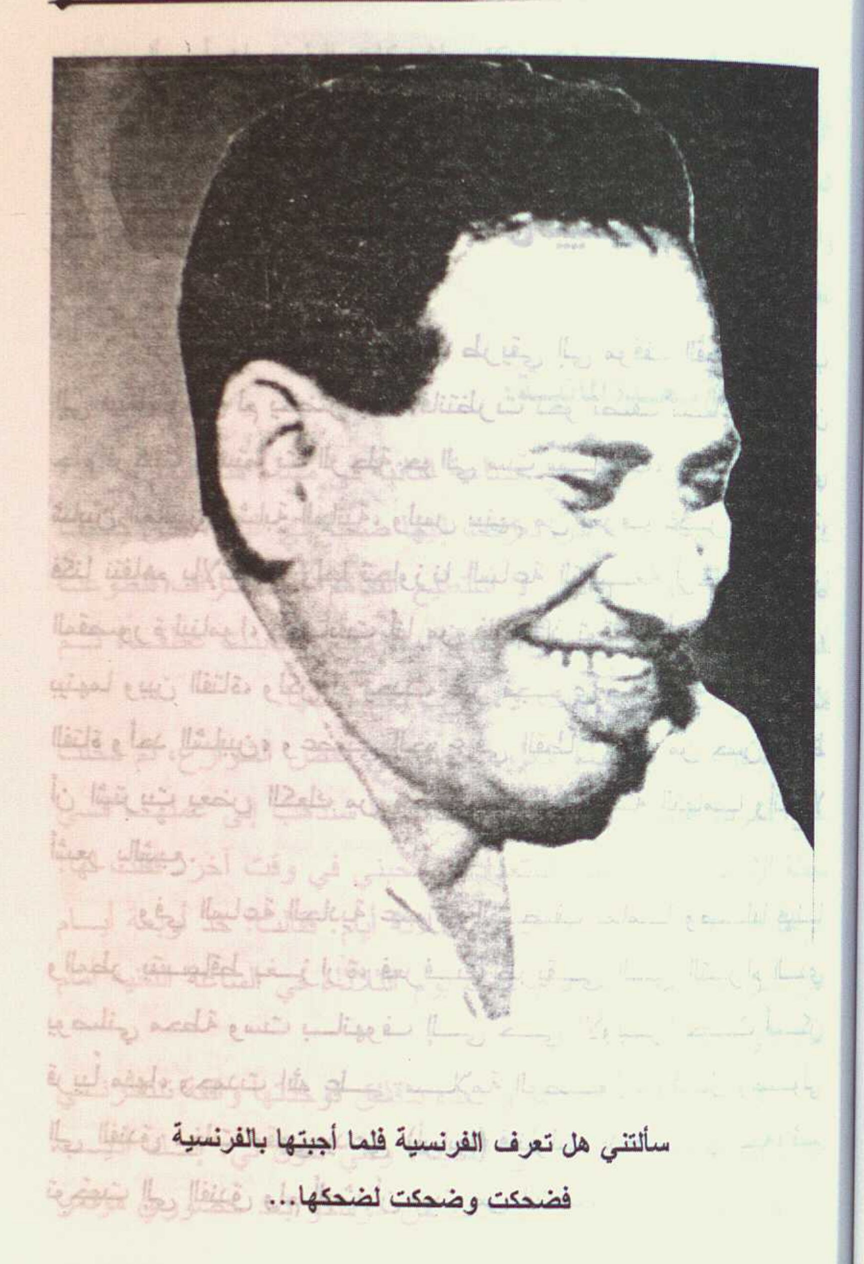


شرحوا أحوال المدينة وأحوال الشعب الألماني ونظرته إلى القضايا العربية

كان معي على المائدة طالب تبين لي أنه من تركيا يدرس الهندسة في ميونخ وهو لا يعرف غير الألمانية، فكنا نتفاهم بالإشارة إلى أن حضر ألماني يعرف الإنجليزية فكان الواسطة بيننا، وهذا التركي ينوي أن يزور القاهرة في طريقه عائداً إلى تركيا، فألقى علي أسئلة عن النقد، وحضر وقت دفع الحساب فإذا بالنقود التي عندي ناقصة ماركا واحدا فحرت في أمري، وعرضت على الخادمة علبة

سجائر فاخرة تشتريها لتقوم مقام المارك فأبت أن تقبل، ووقت القطار قد أزف، فكان الذي أنقذني من الورطة هو ذلك الطالب التركي، إذ قال: إنه سيدفع المارك عني، وعرضت عليه علبة السجائر مقابل المارك فلم يقبل، وأصر على أن يدفع عني بدون مقابل، فأكبرت خلقه وشهامته، وعدوت أحمل حقيبتي الصغيرة عدواً حتى بلغت القطار، وهو على وشك أن يبدأ السير.

وغيرنا القطار في سالسبورج وكدت أقع في مشكلة كبيرة لا يعلم غير الله عاقبتها، إذ بقيت في القطار عند سالسبورج ظنا أن القطار ذاهب إلى فيينا، وخلا القطار من الركاب غيري فاستوحشت من الوحدة وذهبت أنظر في المقاصير الأخرى لا أجد أحداً فوجدتها خالية كلها إلى أن عثرت على فتاة جميلة تجلس وحدها في مقصورة فاستأذنت عليها وكلمتها بالإنجليزية فردت بالقبول، فذهبت أحمل حقيبتي إلى المقصورة، وما أن جلست قليلاً أتحدث إليها هل هي ذاهبة إلى فيينا (وكان هذا هو السؤال المهم عندي) فدهشت إذ أجابت بالنفي، فقلت لها. مستوضحاً أيضاً: أتريدين أن تنزلي في محطة قبل فيينا؟ قالت: لا، هذا القطار لا يذهب إلى فيينا، فصعقت. وقالت: انزل إذن قبل أن يتحرك القطار، ويظهر أنها تعرف الفرنسية أيضاً إذ سألتني هل تعرف الفرنسية فلما أجبتها بالفرنسية. قالت وأسفاه كان ينبغي أن تكون رفيقي في هذه الرحلة، فإني أحب أن أتحدث بالفرنسية؛ فودعتها وأنا أشكرها لإنقاذي من المصير الذي كان ينتظرني لو واصلت السفر في هذا القطار، فضحكت وضحكت لضحكها!



سألتني هل تعرف الفرنسية فلما أجبتها بالفرنسية فضحكت وضحكت لضحكها...

العــــــودة إلـى فيينـــــا

نزلت من القطار، وعرفت طريقي إلى موقف القطار الـذاهب إلى فيينا، وكان لم يحضر بعد، فانتظرت نحو نصف ساعة إلـى أن جاء فركبت واستمرت الرحلة حوالي ست ساعات، وكـان رفقـائي شابيْن ألمانيين وشابة ألمانية، وليس بينهم من يعرف غيـر الألمانيـة، فكنا نتفاهم بالإشارة، ولما تجاوزنا الساعة التاسـعة أرخـوا سـتائر المقصورة ليناموا، فتضايقت أنا من ذلك. إذ توقعت أن يحدث شـيء بينهما وبين الفتاة، ولكن لم يحدث غير نجـوى صـامتة خفيـة بـين الفتاة وأحد الشابين، وعضني الجوع في القطار فكان من حسن الحـظ أن اشتريت بعض الكعك من محطة ميونخ فالتهمته التهامـا وأنـا لا أشعر بالشبع.

وفي الساعة الحادية عشرة والنـصف تمامـاً وصـلنا فيينـا والمطر يتـساقط بغـزارة، فعرفـت طريقـي إلـى التـرام الـذي يوصلني محطة وست بـانهوف إلـى حـي الأوبـرا حيـث أسـكن قريباً منها، وحمدت الله علـى سـلامة الوصـول، وقبـل وصـولي إلى الفندق دخلت مقهى يدعى (أرابيا) فتناولت قدح شـاي بـه، ثـم توجّهت إلى الفندق ولم ألبث أن نمت من التعب.

وفي الصباح اتصلت بمكتب لشركات الطيـران أسـأل عـن الأخبار، ثم تجولت قليلاً في المدينة، وتناولـت غـداء فـي المطعـم المتواضع بشارع الخاتم الكبير كلفني حوالي ستة عشر شلنا نمـساوياً، والغداء عبارة عن شربة لا بأس بها وطبق من لحم العجل المسلوق مع بطاطس وبسلة.

حـــوار مع ملحـــدة ألمانيـــة:

وكنت على موعد في الساعة الثانية في مساء هذا اليوم مع فتاة نساوية اسمها هرمينة نس تعرفت إليها صدفة في البنك، حين كنـت أصرف بعض النقود، رأتني لا أستطيع التفاهم مع الصراف فتطوعت لمساعدتي، وسألتني عن بلدي، فقلت لها: مصر. فأبدت عطفـاً، ثـم قالت: هل زرت المدينة؟ قلت لا، زرت بعضا منها.

وخرجنا من البنك معاً، فتجولنا في بعض الشوارع، ثم دخلت مقهى، فشربنا القهوة. وهناك اعتذرت بأنها ستذهب إلى عملهـا فـي محطة الإذاعة، وأنها على استعداد لتصحبني في وقت آخر. فقلت لها: إنني مسافر غداً إلى ميونخ أقيم فيها ثلاثة أيام. فقالت: خذ أربعة أيـام على سبيل الاحتياط وموعدي معك يوم الثلاثاء في الساعة الثانية أمام البنك الذي تلاقينا فيه.

وحضرت في الموعد أو بعده بدقائق فوجدتها واقفة تنتظرنـي فتبادلنا التحية، سرنا نتجول في المدينة، وهي تقول لي: إنـك أديـب - عرفت ذلك لما أخبرتها أنني قادم من موسكو بعد حضوري مؤتمر

طشقند – وينبغي أن أفرجك على الأحياء القديمة في المدينة، فلعلها تعجبك وتثير شيئاً عندك، وكذا ذهبنا إلى فيينا القديمة وتمشينا إلى كنائسها وأهمها كنيسة سان ستيفن الكبيرة، ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر وقد هدمتها القنابل في الحرب، ولكن بقيت جدرانها الخارجية فأصلحوها بعد الحرب، ومنها كنيسة صغيرة جداً، قالت: إنها أقدم الكنائس كلها.

وفي إحدى هذه الكنائس لما وقع بصري على بعض السيدات وهن يغمسن أيديهن في الماء المقدس ظننت أنها ستفعل مثلهن، ولكني دهشت، إذ أشارت إليّ قائلة: هل أنت مؤمن أم كافر؟ قلت لها: مؤمن – مؤمن بالله الخالق العظيم الذي خلق الكون والناس جميعاً لا فرق بين شرق وغرب وبين دين ودنيا فابتسمت. قلت لها: وأنت؟ قالت: أنا كافرة. قلت لها: لماذا؟ لعل ذلك من أثر الحرب وأهوالها التي أشاعت القلق في النفوس والشك والريبة، قالت: ربما، إن أبي قتل في حدود روسيا وهو يقاتل في الميدان.

وأخبرتني أنها وحيدة أبويها وأن أمها مازالت تعيش معها، قلت لها: هل فكرت في الكون وفي الطبيعة؟ وهل درست الفلسفة واللاهوت فوصلت إلى هذه النتيجة؟ قالت: كلا، قلت لها: إذن فإن كفرك هذا على غير أساس، فضحكت، وهي تقول: إنني مادية. ولم أفهم قصدها إلا بعد ذلك، حين جلست في مقهى قديم اختارته بالذات لقدمه بعد أن شككت في تحول المقاهي القديمة الجميلة الساكنة إلى ما يسمى espresso أي مشارب حديثة.



مصر والسعودية القيادة الإسلامية والسياسية في العالم العربي والإسلامي

وفي هذا المقهى حدثتني أنها كانت شيوعية وعضواً في الحزب الشيوعي لمدة إحدى عشرة سنة، ثم كفرت بالشيوعية عندما وقع حادث المجر فلم تستطع أن تحتمل تصرف السوفيات، فعرفت حينها لماذا هي لا تؤمن بالأديان.

وجرى حوار عن السيدة مريم العذراء ونحن نتجول في بعض الكنائس، إذ بصرنا بصورتها مزينة بالشموع، فقلت لها: إننا نسميها بالعربية مريم. قالت: هل لها ذكر في كتبكم؟ قلت لها: نعم، إنها مذكورة في القرآن فعجبت! قلت لها: إن في القرآن سورة مخصصة لها اسمها سورة مريم، وإننا نتلوها آناء الليل وأطراف النهار وإن القرآن أعطى لها وصفا رائعاً لا يوجد له نظير حتى في الإنجيل فزاد عجبها. وأخذت أترجم لها بعض الآيات في ذلك، وكان ذلك قبل أن أعرف أنها غير مؤمنة، وفي أثناء مشينا على كورنيش فرع الدانوب ويسمى ساحل فزانزجوزيف، عادت فسألتني: هل الموجود في القرآن مثل الموجود في الكتاب المقدس؟ قلت لها: نعم يوجد كثير في القرآن يطابق ما في الكتاب المقدس، ولكن هناك فروق أساسية بين الدينين، فالإسلام لا يؤمن إلا برب واحد، وأن عيسى عليه السلام نبي مرسل وليس ابن الله، ثم إن الإسلام لا يعترف بالواسطة بين الله وبين عبده، فعجبت من هذه النقطة، وسألت: ألا يوجد عندكم قسس ورجال دين؟ قلت: لا. فقالت: هذا حسن - قالت: والمساجد؟ - قلت: هي بيوت الله يصلي فيها الناس ولكن لا يشترط على المسلم أن يصلي فيها بل يمكنه أن يصلي حيث يشاء وأينما يكون، غير أن الصلاة في المسجد أفضل ليتاح للمسلمين الاجتماع والنظام.

وفي ساحل فرانز جوزيف صعدنا في دَرَج إلى الجزء العالي من المدينة، فعجبت من هذه الظاهرة، فشرحت لي أن الدانوب كان يغمر هذا الجزء من الأرض وأن الساحل كان يبدأ من هنا. إن هذه الكنيسة (تشير إلى كنيسة في الربوة) تسمى كنيسة الصيادين والبحارة لوقوعها على الساحل، وكان الصيادون والبحارة يعشقون هذه الكنيسة.

أثر الدعاية الأمريكية:

وفي المقهى المشار إليه سابقاً تحدثنا في السياسة، فوجدتها مخدوعة بعض الشيء بالدعايات المضادة لسياسة حكومة الثورة في مصر، إلا أنها على شيء من الاعتدال. وجعلت أشرح لها الأمور على حقيقتها فلم تكد تصدق ما أقول. ويظهر لي أن الدعاية الأمريكية قد تمكنت منها حتى لقد ساورني الشك في أنها ربما تعمل لحساب الأمريكيين، فالدولارات الأمريكية تعمل عملها في هذه البلاد.

وقد حدث لي مثل هذا غير مرة ففي القطار إلى سالسبورج لقيت فتى مايكاد يبلغ العشرين ما إن علم أنني من مصر حتى بادرني يسأل: ما رأيك في ناصر؟[1] يقصد الرئيس جمال عبدالناصر، قلت: ناصر من كبار رجال العالم وهو زعيم العرب، وقد حررنا من الاستعمار وفتح لنا الطريق لمستقبل زاهر والرأى للجماهير العربية التي تحيط به لكل مكان. فأخذ يردد «الزعيم القاتل» إنه هتلر الثاني[2]، فأخذت أشرح له بطلان هذا الزعم، وطال الحوار بيني

---

(١) جمال عبدالناصر: (١٩١٨ـ ١٩٧٠)، قائد ثورة ٢٣ من يوليو ١٩٥٢م بمصر وأشهر زعماء العالم العربي في عصره وأكثرهم قوة وسلطاناً وتأثيراً على الجماهير.

(٢) هتلر: (١٨٨٩ـ ١٩٤٥م) دكتاتور ألمانيا وزعيم الحزب النازي ومؤسس الرايخ الثالث، عين رئيساً للوزراء سنة ١٩٣٣م، وفي سنة ١٩٣٤م أصبح رئيساً للجمهورية، فنكل بالشيوعيين وطردهم من وظائف الدولة، وأحرق =

وبينه وهو يستمع إليّ في عجب وإعجاب، وقال يا ليتني أتكلم الإنجليزية بطلاقة مثلك، وبدا عليه شيء من الاقتناع. ولما علم أنني قادم من موسكو طفق يسألني ويردد المزاعم الأمريكية أيضاً عن الاتحاد السوفياتي وعن الحياة فيه، وقال: إنني لا أستطيع أن أتذكر خروشوف إلا وفرائصي ترتعد من ذلك الرأس الذي يشبه المطاط، فأخذت أشرح له حقيقة الحال في الاتحاد السوفياتي، وحضر موعد نزوله من القطار فقال لي: أواصل السفر معك لأستمع إلى حديثك فقد استفدت كثيراً: قلت له لا بأس أن نفعل ذلك، قال: فإني أعدك من اليوم فصاعداً أن أقرأ مختلف وجهات النظر ولا أقتصر على الصحف الغربية.

= اليهود وآبادهم وشتت شمل من بقي منهم. قادت سياسة الفوهرر الخارجية ذات الطابع العدواني إلى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ــ ١٩٤٥)، ولقيت هذه السياسة تشجيعاً من جانب الحكومة البريطانية في بادئ الأمر. فقد عقدت هذه الحكومة معه اتفاقية نقضت أحكام معاهدة فرساي، وتساهلت معه في شأن إعادة تسليح الراين، وأغضت عن ضمه النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا. أعلن هتلر الحرب على بولندا في أول سبتمبر ١٩٣٩، وسرعان ما اندلعت ألسنة النيران في أوروبا، وخاصة حينما أعلن الحرب على روسيا ١٩٤١م، ونصب هتلر نفسه قائداً للجيش الألماني، مما أدى إلى نتائج وخيمة. تآمر بعض كبار الموظفين العسكريين والمدنيين على اغتياله بوضع قنبلة تحت مقعده، ولكن المؤامرة قمعت بصرامة بالغة على يد هتلر قائد الشرطة الأكبر. خرت الجيوش الألمانية سريعة أمام هجوم الحلفاء على ألمانيا من كل ناحية (١٩٤٤ــ ١٩٤٥م)، فانتحر هتلر في ٣٠ من أبريل ١٩٤٥م في برلين مع زوجته إيفا براون التي كان قد عقد قرانه عليها حديثاً، وعين الأميرال دونتز خلفاً له، فسلم للحلفاء دون قيد أو شرط، بعد تعيينه بأيام قلائل.



سألوني ما رأيك في عبدالناصر فقلت:
الرأى للجماهير التي تحيط به في كل مكان

مع الآنسة هرمينة تحت الأرض:

نعود إلى حديث الآنسة هرمينه نس، ومن الغريب أنها تقيم في بيت يقع قريباً جداً من مكتب الملحق الثقافي المصري في شارع أرجنتينا، فالمكتب رقم ٢١، وبيتها رقم ١٣.

وتشعّب الحوار فتناول مشكلة إسرائيل وسألتني: ماذا تعتقد في إسرائيل؟ قلت لها: أعتقد أنها دولة مفتعلة لأن الدول اليوم لا يمكن أن تقوم على أساس الدين، فاليهود لا تجمعهم غير رابطة الدين، فهم من جنسيات مختلفة، وقد تكوموا في فلسطين بعد أن طردوا أهلها العرب، فهم يعيشون في العراء والمخيمات في حالة يُرثى لها، وعددهم يبلغ مليون نفس، ومع أن هذا الدستور هو الذي زرع إسرائيل في قلب الأرض العربية.

وذكرت لها خطر ازدواج الولاء الذي سيكون وبالاً على اليهود في العالم، قالت: ولكن ناصر يقول: إنه سيرمي اليهود في البحر، قلت لها: هذا كذب افتراه الاستعمار على ناصر، ولم يصدر مثل هذا من ناصر قط، ويجب أن تعلمي أن ناصر أحصف وأدهى من أن يتفوه بمثل هذه الكلمة، فهو يعلم قبل أي واحد غيره أن مصير إسرائيل الفناء إن عاجلاً أو آجلاً، وليس من سياسة ناصر أن يتيح للدول فرصة التدخل في الشرق الأوسط لو أنه هاجم إسرائيل، فأظهرت كثيراً من الاقتناع بهذا البيان.

وقلت لها: إنني كتبت مسرحية في هذا الموضوع عنوانها (شعب الله المختار)[1] وهنا تحول الحديث من السياسة إلى الأدب فحدثتها عما صنعت في ميونخ مع أصدقائي الألمان بها، ولما علمت أنني سلمتهم نسخة من مسرحيتي (مأساة أوديب) سألتني أن ألخص لها فكرتها الأساسية ففعلت، فأعجبت بالموضوع. وتبين لي بالطبع أنها على اطلاع بالآداب القديمة، وكانت قد أحضرت معها نسخة من جريدة نيويورك هيرالد تربيون فيها مقال عن الكاتب الروسي الذي نال جائزة نوبل هذا العام عن قصة (الدكتور جيفاكو) واسمه باسترناك[2].

---

(١) شعب الله المختار: مسرحية كتبها سنة ١٩٥٨م عن خطر الهجرة اليهودية إلى فلسطين مثلت على مسرح حديقة الأزبكية سنة ١٩٥٨م، إخراج كرم مطاوع.

(٢) باسترناك: (١٨٩٠ــ ١٩٦٠). شاعر وكاتب قصصي روسي، اشتهر بكتابه (دكتور زيفاجو) (١٩٥٧م). نال باسترناك جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٨م وقد قبل الجائزة، ثم اضطر إلى رفضها تحت ضغط الحكومة السوفيتية آنذك. وقد حرمت السلطات كتاب (دكتور زيفاجو) في الاتحاد السوفيتي سابقا. كان الكتاب قد طبع أولاً في إيطاليا، ثم ترجم لاحقاً إلى اللغة الإنجليزية، وإلى عدة لغات أخرى. وزيفاجو هذا طبيب روسي مر بتجربة قاسية، وعانى من الفوضى أثناء فترة الثورة في بلاده، ولم يكن يقبل الحكم الشيوعي، وكان يحاول أن يعثر على السعادة في الحب وجمال الطبيعة. على الرغم من أن أشعار باسترناك قد ساندت ثورتي روسيا (١٩٠٥و١٩١٧م) إلا أنه لم يكن راضيا عن كثير من المبادئ الصارمة التي فرضها الحزب الشيوعي، وخلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين منعت الحكومة السوفيتية السابقة نشر معظم كتابات باسترناك. فعاد إلى ترجمة الأشعار والتمثيليات التي كتبها كتاب أجانب، مثل جوهان فون جوته، ووليم شكسبير. وفي عام ١٩٥٧م فصل اتحاد كتاب روسيا باسترناك من عضوية الاتحاد؛ وأدى ذلك إلى عدم إمكان طبع أعماله في الاتحاد السوفييتي. وفي عام ١٩٨٨م طبع كتاب (دكتور زيفاجو) بالاتحاد السوفييتي لأول مرة.

فسخطت عليه الحكومة السوفيتية، وقد حرصت على أن تطلعني على هذا المقال، فكان ذلك مما شككني في أمرها من حيث صلتها بالدعاية الأمريكية.

وخرجت من المقهى بعد أن دفعت هي الحساب ورفضت رفضاً باتا أن أدفع قائلة إنني ضيفها العشية، فتركتها تفعل ذلك، وقلت في نفسي: سأدفع أنا حساب العشاء إذا تعشينا فلا بأس أن تدفع الآن حساب القهوة، وبعد أن تجولنا كثيراً في الأحياء القديمة، قالت لي: سأذهب بك الآن إلى أقباء فيينا، قلت: افعلي ما تشائين، فهبطت إلى قبو من هذه الأقباء، فإذا هو سرداب مبني سقفه وجوانبه من الصخر كأنه مجاري الماء في فرنسا، وإذا هو مملوء بالناس يشربون ويأكلون ويغنون على موائد متفرقة على طول السرداب، واتخذنا مجلسا في أحد أركانه واستأذنتني لحظة ظننت أنها ستقضي حاجة في المرحاض، ولكني تبينت بعد قليل، إذ رأيت الناس يذهبون ويجيئون بأقداحهم وطباقهم، أنها لابد قد ذهبت لتحضر كوبين وطبقين لنا فأسفت إذ لم أنهض أنا للقيام بذلك، وخشيت أن تدفع هي الحساب مقدما ووقع ما توقعت أن يكون إذ أقبلت بقدحين من الشوربة، ومع القدحين طبقان من السجق، فأكلنا ونحن نتحدث في مختلف الشؤون، وكان الحديث في هذه المرة أخف وزنا وأكثر مرحا، فالجو كله مشبع بالبهجة والمرح، وأسفت إذ لم أهتد إلى مثل هذا القبو من قبل، فقد مررت غير مرة من قبل، فلم أعرف ماذا يصنعون فيه؟

فتاة نمساوية عجيبة كريمة:

وكان مما استطرد إليه الحديث صعوبة تعلم اللغة العربية، فقلت لها: إنها ليست صعبة إلا في بدايتها، أما بعد ذلك فستجدين من المفردات قياسا ما يعينك كثيراً على تعلمها، وأخذت أضرب لها الأمثال، فشاقها ذلك وأخذت تطالبني بالمزيد من الكلمات المفردة وبعض الجمل والعبارات، وقالت لي في خبث جميل لطيف: قل لي جملة بالعربية تراها مناسبة. ففكرت قليلاً ثم قلت: «الله يهديك»...إلخ. فكانت تضحك وتكتب الكلمات بالحروف اللاتينية وإلى جانبها معانيها حتى ملأت الجريدة التي معها بالكتابة وهي مسرورة فرحة، وقد رأيت من ذكائها في التعلم عجباً، حتى قلت لها. على هذه الطريقة أستطيع أن أعلمك أصول اللغة العربية في شهر واحد، قالت: أجل سأتعلمها سألتحق بمعهد الدراسات الشرقية في فيينا وأتلقى العربية على يد صديقك الدكتور جوتشالك، وكنت قد حدثتها عنه ساعة لقائنا الأول، ثم قالت لي: ياليتني أستطيع أن أزور القاهرة في الإجازة الاعتيادية، ولكن النفقات كثيرة علي، قلت لها: هل ترغبين في تعليم اللغة الألمانية عندنا فتستطيعين أن تقيمي في القاهرة مدة أطول؟ قالت: لا أستطيع أن أترك عملي بالإذاعة.

ثم بدأت تحدثني عن خطيبها، وما كنت أعلم أنها مخطوبة إلا في هذه اللحظة، ولما سألتها عنه قالت: لا تسألني عنه فقد غار منك لما أخبرته أنني سأرافقك وأفرجك على المدينة. قلت: حقا؟ قالت: نعم، حتى لقد أراد أن يمنعني من مقابلتك في الموعد، ولكني لم أطعه، قلت لها: لم لم تدعيه إلى المجيء معك ليراني ويلقاني؟ قالت: إنه مشغول، ثم إنني لم أستأذن منك في المجيء به معي، لا ينبغي أن أفعل ذلك.

قلت لها: في المرة القادمة أحضريه معك، قالت: إنه لا يعرف الإنجليزية، قلت: ماذا يعرف من اللغات غير الألمانية - شيئا من الفرنسية - هذا حسن أنا أعرف الفرنسية فسأتحدث معه بها، فضحكت في شيء من الأسى، وقالت بالعربية التي تعلمتها مني منذ الساعة: لا ياعزيزي السيد باكثير. فقلت: لماذا لا؟ فاستطردت تقول بالإنجليزية: لا أستطيع أن أقابلك مرة أخرى، هذه المرة وكفى. قلت لها: ولكن ما المانع؟ قالت: المانع هو ما ذكرت لك من قبل أن خطيبي لن يسمح لي، وستحدث بيني وبينه مشاجرة إن فعلت، ولم أشأ أن أثقل عليها، فاكتفيت بهذا القدر من السؤال.

والواقع أن الذي آلمني هو أنها دفعت الحساب عني ولم تتح لي فرصة لدفع الحساب عنها فشعرت بخجل شديد، ولمحت لها عن ذلك فقالت: ليس بيننا يا عزيزي فرق أنت ضيفي الليلة ولم أدفع غير قدر يسير لا يذكر، وقد سعدت بمقابلتك واستفدت منك كثيراً.

فتاة عجيبة وموقف محير:

ولم تلبث أن نظرت في ساعتها، فصاحت: التاسعة والنصف! يجب أن أكون في البيت الآن، فنهضت وأخذنا نسير في الطريق صوب الحي رقم٤ من فيينا حيث يقع فندقي ويقع قريباً من بيتها أيضاً. قلت لها: وأنا لا أعرف الاتجاه: أين نمضي الآن؟ قالت: من حسن الحظ أن الطريق يجمعنا، فنحن عائدان إلى بيوتنا.

وطفقنا نمشي حتى وقفت بي في شارع، فقالت: انظر هذا هو منزلك، فنظرت فإذا أنا حقا أمام الفندق ولا أدري كيف! إذ سلكت بي طريقاً غير الطريق الذي أعرفه، فقلت لها: إذن يجب على أن أوصلك

أنت إلى بيتك، فلم تمانع، بعد أن اطمأنت على أني أعرف الطريق إلى الفندق وماشيتها صوب شارع أرجنتينا حتى إذا كنا على مقربة منه، وقفت تودعني!

قالت: هذا آخر العهد بيننا في فيينا. فإذا عزمت على السفر إلى القاهرة فسأكتب إليك قبله بمدة لتبحث لي عن فندق متواضع رخيص، وشكرتها على كل ما صنعت من أجلي، وهي تقول لم أصنع شيئاً، هذا واجبي، وقد سعدت بك أكثر مما سعدت بي. كل ما أريده منك أن تذكرني بخير. وتركتها تمشي نحو بيتها، وأنا أنظر إليها حتى غابت عن عيني، وقد تركتني في دهشة لم أفق منها حتى الآن، ترى ما الذي جعلها تسلك هذا السلوك؟ تضيع معي أكثر من تسع ساعات من وقتها فتفرجني على المدينة وتنفق علي من جيبها وتحافظ على موعد مضت عليه أربعة أيام ثم تودعني هذا الوداع العجيب.

إن كل هذا الأمر لعجيب، ولاسيما في هذه البلاد التي يحرص أهلها على المال حرصاً عجيباً، إني إلى الآن لفي حيرة، وسأبقى في حيرتي حتى أجد تفسيراً، وأنّى لي بالتفسير؟

رسالة من مصر:

وفي صباح اليوم التالي يوم الأربعاء خرجت من الفندق، فجرى الحارس خلفي، وسلمني كتاباً من مصر، ففضضته في شوق فإذا هو من فوزي سالم[١]، ففرحت بسلامة الأهل وعافيتهم، وقرأته

(١) فوزي سالم باعامر: كان باكثير الذي لم يرزقه الله بولد يعبر عن أبوته بتبني بعض أبناء الحضارم في إندونيسيا يستقدمهم إلى مصر للتعليم ويعيشون معه في بيته كأنهم من صلبه وهذا واحد منهم.

مرتين، ثم واصلت سيري إلى مكتب شركات الطيران، فسألتهم: إن كان في استطاعتي أن أسلك طريق أمستردام لأمكث فيها بضعة أيام، فنظر الموكل بالأمر في أوراقي كلها ثم أجابني أن ذلك غير مستطاع لأن أمستردام يقع في خط قبل فيينا، وإنما يمكنني أن أمر بالخط المنحدر من فيينا لا الصاعد منها، وأرانا الجدول الخاص بذلك، فعرفت منه أن في وسعي أن أذهب إلى زيورخ وجنيف وميلانو وروما وأثينا إلخ... فبدا لي أن أختار طريق ميلانو لأني لم أرها من قبل، ولكني لم أقطع في الأمر بعد.

وذهبت إلى مكتب الملحق الثقافي لزيارته فمكثت به مدة طويلة وتجاذبت الحديث مع رئيس المكتب الأستاذ حافظ، ثم حدثته عن رغبتي في زيارة ميلانو فشجعني على ذلك، وقال: إنك لا تسافر كل يوم، فتوكل على الله فإنها مدينة جميلة، ثم أعطاني مذكرة بالأمور التي يريد مني أن أبلغها للأستاذ محمد سعيد العريان[1] ليهتم بها اهتماماً خاصاً، وهي أمور ثقافية على جانب كبير من الأهمية.

ولم يخطر ببالي حينئذ أن علي أن أحصل على تأشيرة موافقة لدخول إيطاليا فقد غاب عن بالي ذلك مع علمي به، فقد سبق أن

---

(١) محمد سعيد العريان: (١٩٠٥ـ ١٩٦٤م) قصصي وروائي إسلامي وصديق شخصي لباكثير، تخرج في دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٣٠م، ثم عمل بالتدريس إلى سنة، ١٩٤٢م، ثم نقل إلى وزارة المعارف. اشتهر بوفائه ودفاعه عن أستاذه وصديقه مصطفى صادق الرافعي، نشر الكثير من كتاباته بمجلة الرسالة، ومن رواياته (قطر الندى)، (على باب زويلة)، (شجرة الدر) و(من حولنا)، و(ألف يوم الأنقاض) وسافر مع باكثير مع رحلة رسمية إلى الاتحاد السوفيتي ورمانيا سنة ١٩٥٦م.

احتجت إلى تأشيرة لدخول تشيكوسلوفيا والنمسا مع أن هذين البلدين مذكوران في الجواز الذي عندي، ولكن هكذا وقع لأمر أراده الله سبحانه فلولا هذه العقبة لكنت الآن في ميلانو فقد كنت قررت أن أغادر فيينا في الساعة الثالثة بعد الظهر بتوقيت فيينا وكان المفروض أن أصل إلى ميلانو في الساعة السابعة والربع والذي حصل الآتي:

أويت إلى فراشي البارحة مبكراً جداً في الساعة الثامنة، واستيقظت في حوالي الساعة الثانية عشرة فغسلت الفانلة الصوف لأنها اتسخت من طول اللبس مع بعض الجوارب، وجففتها على حدائد جهاز التدفئة المركزية فجفت بعد ساعتين.

عجائب التدفئة:

وعلى ذكر هذا الجهاز فإنه حقا ممتع في هذه البلاد الشديدة البرودة، ويكفي أن تعلم أنك تستطيع أن تجلس في حجرتك عارياً من الملابس كلها دون أن تشعر بأي برد، وتستطيع بالتالي أن تعمل في حجرتك وتكتب وتؤلف لساعات طويلة دون أن يضايقك شيء، وهو يختلف عن جهاز التدفئة الكهربائية (الدفايات) لأن هذه ليست صحية، وتعرض الجالسين بجانبها إلى الإصابة بالبرد إذا خرج من الحجرة، وتشعر كذلك بلفح الحرارة يأتيك من جانب واحد، أما هذا الجهاز فإنه لا يدفئ الحجرة وحدها بل البيت كله، وإنك لتعجب من قلة الأغطية المعطاة لنا على سرير النوم إذ لا حاجة إليها في الواقع، وأذكر أننا نستعمل في مصر الأغطية الثقيلة فلا تقينا من مس البرد إلا قليلاً. وهذا الجهاز منتشر الآن في أوروبا كلها فهو في الفنادق وفي



باكثير رئيس وفد الأدباء المصريين للاتحاد السوفيتي
ورومانيا سنة ١٩٥٦م يتوسط زملائه: د.محمد مندور
ود.شوقي ضيف وعبدالرحمن الشرقاوي ومحمد سعيد العريان

عربات الترام وعربات القطار والمسارح ودور اللهو والمقاهي والبيوت أيضاً، ولكن ليس كل بيت يوجد فيه هذا الجهاز، فكثير من الناس لا يقدرون على دفع تكاليفه بالاشتراك في الشركة التي تديره، وإني على كل حال لم أجرب النوم بدونه في هذه الرحلة إلا في فندق طشقند وفندق سمرقند ونزل ستالين أباد؛ لأن الناس هناك يحتاجون إلى هذ الجهاز كثيراً، إذ تكون في هذه البلاد البرودة القاسية، لذلك كنا نرتعش من البرد في هذه الأماكن أكثر مما كنا نحسه في موسكو وغيرها من البلاد الباردة.

وأذكر أيضاً والشيء بالشيء يذكر - أننا حين بتنا ليلة في فيينا أثناء سفرنا إلى رومانيا في وفد الأدباء المصريين إلى رومانيا والاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٦م أننا نزلنا في بيت خاص استأجرنا حجرة فيه لرخصه فقاسينا الأمرين من البرد لعدم وجود هذا الجهاز فيه ولقلة الأغطية حتى إن صديقنا الأستاذ محمد سعيد العريان أصيب ببرد سبب له سعالاً طوال مدة الرحلة وكثيراً ما كان يذكر تلك الليلة في فيينا ويلعنها.

وإني وأنا أكتب هذه الكلمات في حجرتي بالفندق وليس عليّ غير (البيجامة)، ولا أشعر بأي برد على الإطلاق لأتمنى أن يكون لي في بيتي في القاهرة حجرة كهذه أستطيع أن أعمل فيها بالليل في وقت الشتاء دون أن أرتجف ويرتجف القلم في يدي، بل لا أبالغ إذا قلت: إنني لا أستطيع أن أكتب مدة طويلة في النهار أيضاً في القاهرة حين يشتد برد الشتاء إلا بمشقة ومغالبة تطيّر الأفكار من رأسي.

شبع الاشتراكية وجوع الرأسمالية!

وإني لأحلم بشهر أو شهرين في هذه البلاد أكتب في خلالهما قصة أو مسرحية تكون فكرتها قد نضجت في ذهني، إذن لأمكنني أن أتمها في سهولة ويسر، والمرء في هذه البلاد يجوع بسرعة عجيبة، إنه ليتناول الغداء الثقيل أو العشاء المشبع فلا تمضي ساعتان إلا وقد جاع مرة أخرى. والعجيب أننا لم نجد مثل هذا الجوع في الاتحاد السوفياتي، ولعل ذلك لأن الروس وأهل الجمهوريات الإسلامية التي زرناها يكثرون من الأطعمة على موائدهم ويقدمون الطعام والشراب

في كل مناسبة حتى في غير أوقات الطعام، فلا تزور أحداً في بيته ولا تغشى داراً من دور الفسحة إلا وجدت المائدة تنتظرك بأكلها الدسم وشرابها القوي وفواكهها وكعكها وقهوتها وشايها ولبنها وسلطاتها...إلخ. فكان أن نفوسنا شبعت من كثرة رؤية الطعام في كل وقت وفي كل مكان.

أما هنا في هذه البلاد فالأكل بحساب، ويكفي أن تعلم أن فنجان القهوة يكلفك أربعة شلنات أو ثلاثة وثلثاً على أقل تقدير أي ما يساوي ١٢ قرشاً مصرياً، أما في ألمانيا فأغلى من ذلك لأنك لا تستطيع أن تجد فنجان القهوة بأقل من مارك ونصف أي مايساوي عشرين قرشاً صاغاً، فأرخص أنواع السجاير لا تقل علبتها الواحدة عن ماركين أي ثلاثين قرشاً صاغاً، وهذا يجعل كثيراً من العرب هنا يقلعون عن التدخين. فإني أستكثر ما أدفعه فيها حتى لقد هممت بإبطال التدخين لو أمكنني ذلك. أما ركوب الترام فلا يقل ثمن التذكرة عن شلن وثمانين بنسا أي ما يقرب من أربعة قروش ونصف، وفي ألمانيا لا يقل عن ربع مارك أي ما يساوي أربعة قروش، فلا غرابة إذن أن تجد في الناس حرصاً على نقودهم بصورة تلفت النظر فلا تجد هنا ما تجد في بلادنا حين يدفع صديق التذكرة لصديقه في الترام أو في الأتوبيس، فما بالك بالمطعم أو المقهى؟ ولا تجد أحداً يخرج طعاماً في القطار أو يخرج علبة سجائره ليدخن فيعزم على صديقه الجالس أمامه إلا في النادر حين يكونان حميمين جداً، وبينهما تبادل في المنفعة.

حياؤنا وقلة حيائهم:

ولقد حدث لي وأنا في القطار في طريقي عائداً إلى فيينا من ميونخ أن جلس في المقصورة التي أنا فيها شابان وشابة فأخرجت الفتاة سباطة موز من حقيبتها فتناولت موزة لتأكلها، وقدمت أخرى لأحد الشابين حين ألح عليها، ولكنها لم تشأ أن تقدم شيئاً للآخر، وأخذ الاثنان يأكلان وقد عضني الجوع فاستحييت لهما ألا يعزما عليّ بشيء كعادتنا في الشرق، وكان معي شيء من الفطائر ابتعته من محطة ميونخ، فهممت أن آكل منها، ولكني خجلت ألا أقدم شيئاً منها لهؤلاء الذين وجوههم في وجهي، وأشفقت إن أنا قدمت أن يعتبروا ذلك نوعاً من اللوم أوجهه إليهم، فصبرت طويلاً ولم أدر ماذا أصنع حتى بلغ بي الجوع منتهاه، وتذكرت المثل الذي يقول: (حين تكون في روما اصنع مثل ما يصنع الرومان) فأكلت حينئذ ولم أبال بالقوم!

إعجابي بنظام التأمين الصحي:

ولعل ما يستحق التسجيل ذلك النظام المتبع في العلاج والطب في ميونخ، فهناك شركتان أهليتان أو ثلاث لعلاج الناس وتأمين صحتهم، وذلك بأن يدفع كل واحد نسبة ضئيلة من دخله إلى الشركة التي يختارها نظير اشتراكه فيها، وله على الشركة أن تعالجه مجاناً مهما يكلف علاجه من نفقات لأجر الطبيب وقيمة الدواء وتكاليف العمليات الجراحية. والسبيل إلى ذلك أن للمشترك أن يختار أي طبيب ليفحصه وليكشف عليه ويوقع على البطاقة التي يحملها عدد مرات الكشف، ويكتب له وصفة

بالدواء، فيذهب المشترك إلى أي صيدلية يختارها ليصرف منها الدواء ويوقّع صاحب الصيدلية على البطاقة أيضاً. ومعنى ذلك أن الشركة تحاسب هؤلاء الأطباء والصيادلة فيما بعد حين ينتهي المريض من العلاج، ولهذا النظام ميزات كثيرة واضحة، منها: أن الطبيب لا يجد ما يدفعه إلى الاشتطاط على المريض أو الرغبة في إطالة علاجه كما هو الحال عندنا بالنسبة للأطباء المستغلين، ولا يجد كذلك ما يدفعه إلى التذمر والتأفف والفلسفة كما هو الحال عندنا بالنسبة للأطباء الذين يعملون في المستشفيات والمستوصفات المجانية. ثم إن المريض لا يجد ما يمنعه من الذهاب إلى الطبيب، والاهتمام بعلاج نفسه لقلة ذات يده أو لبخله بما يصرف للطبيب وبذلك تقل الأمراض في البلد.

وهناك نسبة ضئيلة أخرى يدفعها المرء للتأمين ضد البطالة، وأغلب هؤلاء من العمال والموظفين، فإذا تعطل أحدهم دفعت له الشركة مرتبه أو أجره اليومي طوال بطالته حتى يجد له عملاً.

أما الذي ساءني فضريبة صغيرة يدفعها كل إنسان للكنيسة الكاثوليكية، وإلا اعتبر خارجاً عنها محروماً من بركاتها، وكثير من الناس لا يؤمنون بالكنيسة، ولكنهم مع ذلك يدفعون لها تلك الضريبة، وهذا موجود أيضاً في النمسا، وأذكر أن صاحبتنا الفتاة النمساوية التي تحدثت عنها طويلاً فيما مضى أخبرتني أنها تدفع الضريبة وإن كانت ملحدة.

حمّام الصباح، والحلاقة، والإفطار:

بعد أن فرغت من غسل ملابسي جلست أكتب رسالة إلى مصر، ورسالة أخرى إلى صديق لي في إيطاليا أخبرته بعزمي على زيارة ميلانو، ورجوته أن يعمل على جعل لقائنا ميسوراً، وجلست بعد ذلك أحسب ما بقي من نقودي فاطمأننت قليلاً، وإن هالني أنني قد أنفقت معظمها في الفترة الوجيزة، والواقع أن اليومين اللذين قضيتهما في براغ كلفاني كثيراً، وكذلك الأيام الثلاثة التي قضيتها في ميونخ.

ثم نمت من جديد واستيقظت مبكراً، فطلبت أن يقدم لي حمام فقد كان آخر عهدي به في براغ حيث يوجد حمام خاص بحجرتي في الفندق، وأستطيع أن أستحم كل يوم، وهو ما كنت أفعله دائماً في مثل هذه الفنادق، فإن الحمام يهبني نشاطاً وقوة، ولكني هنا في فيينا لا أستطيع أن أصنع ذلك لأن للاستحمام في الفندق أجراً خاصاً يبلغ حوالي ١١ شلنا أي ما يقرب من ستة وعشرين قرشا، وكذلك أجر حلق الشعر، فقد ظللت أؤجل حلق شعري خشية أن يرزأني ذلك فيما بقي من نقودي إلى أن رأيت شعري قد طال بصورة مزرية، وخاصة في تلك البلاد التي يكاد المرء فيها يحلق كل يوم، فتوكلت على الله ودخلت صالون حلاقة قدّرت أنه متواضع، فإذا امرأة تتولى حلق شعري، وإذا هي تطلب مني حوالي ١٢ شلنا أي ما يقرب من ثلاثين قرشاً.

وبعد صلاة الصبح تناولت فطوري الذي يرسل إليّ في الحجرة، وهذا من ميزات هذا الفندق المتواضع؛ فإن إفطار